ميخائيل نعيمة

دروب



8

مؤسسة نوفل




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



دروب



ميخائيل نعيمه

دروب



الطبعة التاسعة
١٩٩٠



دروب الحياة

يعروني ذهول ، وأيّ ذهول ، كلّما فكّرت بالدروب التي تسلكها الحياة في داخلي وفي الأكوان من حواليّ. وأبدأ أوّل ما أبدأ بجسدي ، وهو ما بان مني لناظريّ وأنظار غيري من الكائنات الحيّة في الأرض . فيدهشني من هذا الهيكل العجيب أنّه شبكة هائلة ومحكمة الصنع من الدروب المتواصلة ، المتقاطعة التي لا تنفكّ مكتظة بسالكيها في كلّ لحظة من وجودي . فلكلّ نسمة هواء أتنشقها ، ولكلّ قطرة ماء أشربها ، ولكل لقمة طعام أبتلعها دروب إلى جسدي وفيه ومنه . وأمّا تلك الكريات التي منها يتألّف دمي ، سواء أحمرها وأبيضها ، فلا تسل عن الدروب التي تسلكها في داخلي من أمّ رأسي وحتّى أخمصي .

للبرد في جسدي دروب ، وللحرارة دروب . وكذلك للمرض والعافية ، وللتعب والراحة ، وللنوم واليقظة ، وللحزن والفرح ، وللألم واللذّة ، وللسخط والرضى ، والقلق

والطمأنينة ، ولكلّ فكرة وشهوة ، وكلّ حركة وسكنة من حركاتي وسكناتي . وهل عيناي وأذناي ويداي وأنفي وفمي غير دروب يسلكها العالم الخارجي إلى داخلي فتنطبع في ذهني أشكاله وألوانه ، وأصواته وملامسه ، وروائحه وطعمه ؟ فإذا بي أستأنس ببعضها ، وأنفر من بعضها .

ومثلما للعالم الخارجي دروب يسلكها إلى داخلي ، كذلك لعالمي الداخلي دروب يسلكها إلى الخارج . فأنا ما فكّرت فكرة إلاّ كانت لي درباً إلى إنسان من الناس ، أو كائن من الكائنات التي تملأ الفضاء . ولا اشتهيت شهوة إلاّ كانت لي عبّارة إلى حيّ من الأحياء أو شيء من الأشياء . ولا نطقت بكلمة أو سطّرت كلمة إلاّ كانت لي طريقاً إلى أذن من الآذان ، أو عقل من العقول ، أو قلب من القلوب ، فلا حصر للدروب التي أسلكها في كلّ لمحة من حياتي إلى العالم الخارجي من حولي ، ولا للدروب التي يسلكها ذلك العالم إليّ ، حتى وإن كنت في حالة هدوء تام ، وكنت مغمض العينين ، مسطوم الأذنين ، مكبّل اليدين والرجلين ، ومعقول اللسان . فما دام في عروقي دم يجري دمتُ في اتصال مستمرّ مع العالم الخارجي . فلا عزلة لي عن العالم ولا للعالم عني .

وأمّا الدروب التي سلكتها وأسلكها منذ أن كنت والتي سلكها ويسلكها غيري من الناس منذ أن كانوا ؛ ثمّ

الدروب التي تسلكها الحشرات والزحافات والدبابات بأنواعها ؛ والدروب التي تسلكها الأسماك في البحار ، والطيور في الهواء ، والأجرام السماوية في الفضاء ؛ والدروب التي تسلكها المياه والأبخرة في جوف الأرض ، والجداول والأنهار على سطحها ؛ والدروب التي تسلكها العواصف والأعاصير ، والبروق والرعود ، والزلازل والبراكين ، والحروب والأوبئة — أمّا هذه الدروب كلّها فمنذا يستطيع حصرها ، أو من ذا يستطيع أن يتتبّع واحداً منها من أوّله إلى آخره ؟ إنّها تلتقي وتفترق ، وتتصل وتنفصل بغير انقطاع . وليس من يدري كيف تلتقي وتفترق ، وكيف تتصل وتنفصل ، ولماذا . فكأنّها درب واحد ذو شعاب بغير عدّ تتفرّع منه لتعود إليه على حدّ ما تتفرّع الجداول والسواقي والأنهار من البحر لتعود فتجري إليه وتنصبّ فيه .

وأنت لو تأمّلت الدروب التي يسلكها الأحياء لوجدتّها جميعها تؤدّي إلى غاية واحدة . وتلك الغاية هي البقاء . فما سلك حيّ من الأحياء درباً من الدروب سعياً وراء الموت ، بل طلباً للحياة. أما رأيت عنكبوتاً تنسج من لعابها شبكة عجيبة الصنع والهندسة ؟ إن كلّ خيط من خيوط تلك الشبكة هو درب للعنكبوت إلى الفريسة التي تستعين بها على الحياة . وقطّ ما حاكت عنكبوت شبكتها لتصطاد بها الموت لنفسها .

كذلك قل في كلّ ما دبّ على الأرض وهبّ في الهواء وسبح في البحار من كائنات حيّة. فدروبها، مهما تنوّعت، هي دروب تسلكها إلى الحياة لا إلى الموت. فالموت ما كان يوماً غايةً لمخلوق، ولا دافعاً يدفعه على الحركة. في حين أن حبّ البقاء، ولذّة التمتّع بالوجود – على ما يكتنفها من مخاطر – والاستماتة في الدفاع عنها كانت وما برحت الدافع الأوّل والأخير على الحركة وعلى تسييرها في دروب ودروب.

وأنت لو تأمّلت العناكب البشريّة لوجدتها، هي كذلك، تنسج شباكاً من الدروب العجيبة الصنع والهندسة لتصطاد بها البقاء ولذّة البقاء. فالمدن المكتظة بالمساكن والمتاجر والمعاهد والمعامل والمعابد ليست سوى شباكٍ لاصطياد العيش وملذاته. وكذلك المزارع والدساكر بحقولها وكرومها وبساتينها. وهذه الاختراعات والاكتشافات التي تنهلّ علينا في الزمان الأخير انهلال المطر من السحاب – أليست هي كذلك شباكاً نصطاد بها الحياة ولذّة الحياة؟ ولو أنّ أيّ حيّ من الأحياء كان على يقين من أن درباً يسلكه سيؤدي به إلى الموت لما سلكه، إذ ان من طبيعة كلّ حيّ أن يهرب من الموت. فكيف يمشي إليه ويجعله هدفاً لطريقه؟ ذلك أمر منافٍ لطبيعة الأحياء.

ولكن دروب الأحياء كافة – ودروب غير الأحياء – تنتهي أبداً إلى التفكّك والتبعثر والموت. أنقول إذن إن غاية

الحياة من الدروب التي تسير عليها هي الوصول إلى الموت ؟ أم نقول كما يقول البعض ، إن الحياة مجرّدة عن كلّ غاية ، فهي تعمل ما تعمل عن غير وعي ولدونما غاية ؟

لو كانت الحياة بغير وعي لما كانت لأيّ حيّ هذه الرغبة الحادة في البقاء برغم ما فيه من عناء وشقاء ، ومن صراع وصداع . ولو كانت الحياة بغير غاية لما كانت هذه الشبكة الهائلة من الدروب التي تسلكها الكائنات ، عاقلها وغير عاقلها ، ومتحركها وجامدها . والدرب – أيّ درب – يعني مدّى بين نقطتين . أمّا الأولى فالدافع على السير . وأمّا الثانية فالغاية منه . ففي كلّ درب ، ووراء كلّ درب غاية من الغايات . والكون كما رأيت ، شبكة هائلة من الدروب . وإذن فهو شبكة هائلة من الغايات كذلك . فكيف يكون بغير غاية ؟

لا ، ليست الحياة بغير وعي وبغير غاية . بل هي الوعي كلّ الوعي والغاية كلّ الغاية. ووعيها ظاهر في هذه الدروب التي ابتدعتها ثمّ سيّرت عليها أبناءها . وغايتها سافرة في جعلها لكلّ حيّ من الأحياء غاية . وهي غاية البقاء والاستمتاع به صافياً ، كاملاً ، وبغير نهاية .

أما أن دروب الأحياء وغير الأحياء تنتهي إلى الموت والتفكّك فليس في ذلك ما يعني أن غاية الحياة الموت . إذ لو كان الموت الغاية التي تسعى إليها الحياة ، ثمّ كان الموت

تلاشياً واضمحلالاً كما يتوهـّم أكثر الناس ، لآن للحياة أن تتلاشى وتضمحل من زمان . ولكنها أبداً تتجدّد بالموت . ولأنـّها تتجدّد بالموت ، فالموت ليس النهاية التي نتوهم . بل هو درب من دروب الحياة .

من أمثالنا العامية المثل القائل : « كلّ الدروب تؤدي إلى الطاحون » . والطاحون ، كما نعرفها ، هي المكان الذي فيه يتحوّل القمح دقيقاً صالحاً لصنع الخبز . والخبز هو عصب الحياة . وإذن فلا بدّ لكلّ بيت في كلّ دسكرة أو مدينة من درب تصله بالطاحون ليبقى ساكنوه على قيد الحياة . وهكذا تصبح الطاحون النقطة التي إليها تنتهي وفيها تلتقي جميع دروب الناس .

ذلك هو المعنى الواقعي للمثل . ولا بأس لو نحن فهمناه على وجه مجازي فقلنا إن المقصود بالطاحون هو الموت . وإذ ذاك فالموت الذي كلّ الدروب تؤدي إليه هو الطاحون التي نُطحن فيها لنتحوّل من شيء صالح إلى شيء أصلح — لا لنغدو لا شيء . وإذ ذاك فالموت ، كما سبق وقلت ، هو درب من دروب الحياة لا نهاية الحياة . وحاشا للحياة التي لا نعرف لها بداية أن تقف عند نهاية ، فدروبها دروب تجدّدٍ وبقاء لا دروب تلاشٍ وفناء .

عالم يشكو

يشكو الناس بعضهم بعضاً بغير انقطاع . فالمحكوم يشكو حاكمه ، والعامل صاحب عمله ، والتلميذ معلمه ، والولد والديه ، والزوجة زوجها ، والمستأجر المؤجر ، والشاري البائع ، والمتدين رجل الدين . والعكس بالعكس . وهكذا قل في كلّ علاقة بين إنسان وإنسان ، أو بين مجموعة وأخرى من الناس . فالشكاوى تتعالى أبداً من الطرفين في كلّ طرفة عين . فكأنّها القرار الأبدي الذي منه تنطلق وإليه ترتد أنشودة الحياة البشريّة على الأرض .

وإذا أضفت إلى ذلك شكوى الناس من الطبيعة والقوى العاملة فيها ومن ورائها كالزلازل والأعاصير ، والجراثيم والحشرات ، وانحباس الأمطار والفيضانات ، والحرّ والقرّ ، والضواري والكواسر ، وجميع أصناف البلايا الجسدية والروحيّة ، ثمّ انقطاع حبل الحياة بالموت ، أدركت إلى أيّ حدّ تهيمن الشكوى على حياة أهل الأرض .

ولا عجب ، فالشكوى من طبيعة كلّ حيّ . فما عوى كلب إلاّ تشكياً من عصاً أو جوع ، أو من عدوٍّ مداهم ،

أو من فراق صاحب عزيز كريم . ولا ثغت شاة إلاّ تشكياً من بُعد رضيعها عنها ، أو من حبسها عن المرعى والمنهل ، أو من انقطاعها عن صويحباتها في القطيع . ولا ناحت حمامة إلاّ كان نوحها شكوى من فراق أو شوقاً إلى تلاق .

والشكوى تكون صارخة أحياناً ، وأحياناً صامتة . فالتعب ، مثلاً ، هو الشكوى الصامتة ترفعها العضلات المكدودة إلى الجسد بأسره طالبة إليه الكفّ عن العمل . والحزن شكوى صامتة يبثّها القلب الحزين في كلّ ناحية لعلّ بـــاعث الأحزان يريحه من أحزانه . وكذلك الصلاة صارخة كانت أم صامتة . فما هي ، حتى في أسمى معانيها ، غير شكوى العابد إلى معبوده من حال هو فيها ، وغير ابتغائه حالاً خيراً منها . وهكذا قل في الخوف والملل ، والغضب والبغض ، والحقد والجشع ، والنميمة وكلّ ضروب النقد وما إليها . فهذه كلّها شكاوى من أمور نتبرم بها ونرجو التخلّص إلى أفضل منها .

وفي اعتقادي أنّ الطبيعة التي لا تعمل أي عملٍ اعتباطاً وارتجالاً ما أباحت الشكوى لكلّ حيّ إلاّ لتحمله على السعي إلى الخلاص ممّا يشكوه . ولذلك تراها قد زودت الأحياء بشتى الحيل للتهرّب ممّا يحملهم على التشكي . فسلّحت الحيوان بالغريزة . وسلّحت الإنسان علاوة على الغريزة بالعقل

والإرادة والخيال والضمير ، وبقوّة التعبير عن كلّ ما تثيره فيه عوامل الحياة من أحاسيس وأفكار وتخيلات . فشكواه إذ ذاك من أيّ شيء ، أو أيّ حال ، هي في الواقع شكوى من ضعف عقله وإرادته وخياله وضميره . أو قل من جهله لكيفيّة استعمال تلك القوى الهائلة التي ما زودته بها الحياة إلاّ ليتقن استعمالها . فلا تستعصي عليه عقدة ، ولا ترتفع له شكوى .

إذن فالشكوى ، مهما يكن نوعها ، هي اعتراف علني بضعف الشاكي وجهله تجاه ما يشكوه ، وباستسلامه الباطني للانخذال والقنوط . ولو أنّه كانت له الثقة بالتغلّب على ما يشكوه ، ولو في المستقبل البعيد ، لما شكا . إلاّ أنّ معظم الناس كالتلميذ الكسول تعطيه قضيّة حسابيّة بسيطة فلا يلبث أن يعلن أنّها غير قابلة للحلّ . ثمّ يمضي يشكو معلّمه لأنّه يكلّفه حلّ قضايا تستعصي على الحلّ . فما أبعدهم عن الذين جاوزونا بعجائب المدنيّة الحاضرة . فاقتنصوا من البرق لظاه وجعلوه نوراً في مساكننا ، وطاقة في معاملنا . والذين مدّدوا أبصارنا وأسماعنا فبتنا نرى ما في الأعالي والأعماق ، ونسمع ما في طيّات الأثير بين مشارق الأرض ومغاربها . والذين فلقوا الذرة وراحوا يمنوننا بسياحات إلى القمر وغيره من السيارات الدائرة في فلك الشمس . أولئك ما شكوا العقبات التي

اعترضتهم في سبيلهم إلى الغاية . لأنّهم كانوا واثقين من مقدرتهم على التغلّب عليها والظفر الأكيد في النهاية .

لقد كان من شأن الإنسان الذي نال ما نال من الفوز في حربه مع المجهول حتّى اليوم أن تصبح له ثقة مطلقة بمقدرته على حلّ جميع القضايا التي ما برحت تجابهه في حياته مهما بلغت من الخطورة والتعقيد . فلا يشكو شيئاً ولا يتبرّم بشيء ـ حتّى ولا بالموت . إلاّ أنّ السواد الساحق من الناس تعوزهم تلك الثقة . ولذلك لا ينفكون يشكون ويتبرمون . وقد ألفوا الشكوى إلى حدّ أنّك لو انتزعتها منهم لكنت كمن ينتزع منهم الحياة . فحيثما اجتمع اثنان أو أكثر انبروا في الحال يتشاكون ويتذمّرون ويتأفّفون . وهم في الغالب يتّخذون من الطقس نقطة انطلاق ثمّ يتدرّجون إلى الغلاء أو الكساد ، وإلى الفساد في السياسة ، والفوضى في الأخلاق . ويمرون بالدين ورجال الدين ، وبالمدارس والمدرسين ، مستخلصين من كلّ ذلك أن الحياة باتت عبئاً لا يطاق . وينتهون إلى معارفهم فيغتابون وينمّون ملء أشداقهم . ويفترقون وليس بينهم واحد يقرّ أمام نفسه بأن الضعف والفساد والفوضى التي يشكوها في العالم هي ، في الواقع ، ضعفه وفوضاه . فحري به أن يشكو نفسه قبل أن يشكو الآخرين . ولو أنّه كان براءً منها لما شكاها .

أما ابتُليتَ ولو مرّة في حياتك بجماعة من الناس يقتلون الساعة تلو الساعة في التشكي من الناس ، ومن الطبيعة ، ومن ربّ الطبيعة ؟ أما أحسست نفسك كالمصاب بالجَرَب ، أو كمن أباح جسده لجيوش جرّارة من القمل والبقّ والبراغيث ؟ أما تمنّيت لو تهرب من أولئك الناس إلى حيث تلقى بشراً يفكرون ولا يشكون ، ويعملون ولا يتذمّرون ، ويسيرون في طريقهم ولا يتأفّفون ؟

إنّما الشكوى ضعف لا يليق بالإنسان الواثق من نفسه ، والمؤمن بمقدرته على الانتفاع إلى أقصى حدٍّ بما وهبته الحياة من قوّة العقل والإرادة والخيال والوجدان — تلك الأنوار الكاشفة التي لو أحسن استعمالها ، ثمّ صوّبها على الظلام من حوله ، مهما اشتدّ ، لبدّده . فما نفعه من الشكوى ما دام لا يفعل شيئاً في سبيل التغلّب على ما يشكو منه ؟ وإذا هو انصبّ بكلّ قواه على دكّ العقبات التي في طريقه ، وكان له الإيمان بأنّه متغلّب عليها في النهاية ، فأيّ مبرّر إذ ذاك لأيّ شكوى ؟

يقيني أن كثرة التشكّي تشلّ عزم المتشكي فتقعده عن الانكباب بكلّ قواه على التخلّص ممّا يشكو . وانّه لمن المؤسف حقّاً أن نرى شرقنا العربي مصاباً بداء التشكي إلى حدّ قلّما بلغه أيّ قطر سواه من أقطار الأرض . فغناؤه — حتّى

الحماسيّ منه — شكوى . وصلاته شكوى . وسياسته شكوى . وأدبه شكوى . وتجارته شكوى . وأفراحه شكوى . فكيف بأحزانه ؟ ثمّ كيف بمآتمه التي لا يدانيها في الأرض شيء تفجّعاً وولولة وعويلاً ؟ إنّها الانسحاق بعينه . بل إنّها الكفر بالحياة الذي ما بعده كفر .

ما أجمل الصمت عند المصيبة ! وأجمل منه النطق الذي يستخفّ بالمصيبة . وأجمل من الاثنين الإيمان بأن لا مصائب في الكون بل هنالك أحداث نجتذبها إلينا عن وعي منّا وعن غير وعي . فتحجب حقيقتنا عنّا إلى حين ولا تمحوها ، كما تحجب الغمامة الشمس إلى حين ولا تطفئها . وهذه الأحداث هي بالدرس والتأمّل أحرى منها بالتبرّم والشكوى . فمن فهم ما تنطوي عليه من دروس وعِبَر قهرها بالفهم ، واتخذ منها سلاحاً لقهر أحداث أشدّ وطأة منها . ومن لم يفهمها حارَبها بالشكوى فكان المقهورَ أبداً وكانت القاهرة .

هنالك قوم يشكون ولا يحكّون ظفراً بظفرٍ للخلاص ممّا يشكون . أولئك هم النعّابون والهدّامون .

وقوم يشكون ويحاولون التخلّص ممّا يشكون . أولئك هم التائهون المؤملون .

وقوم لا يشكون ، ولكنّهم أبداً بفهم وجدّ يعملون . أولئك هم الهداة والبنّاؤون .

الشباب ثروة وثورة

كتبَت إليّ صحيفة عراقيّة تطلب كلمة توجيهٍ مني إلى الشباب العربي . فأجبتها بما يلي :

« ليس الشباب في حاجة إلى من يوجّهه . فالقوى الهائلة التي يزخر بها كيانه هي الكفيلة بتوجيهه في السبيل المعدّ له . وإنّما حاجة الشباب إلى من يحميه من موجهيه الذين يحاولون أبداً أن يكمّوا فاه ، ويكبّلوا يديه ورجليه ، ويسكبوا الماء البارد على الحماسة المتأجّجة في صدره ، ويزرعوا الذعر والخنوع في فكره وقلبه . أولئك ، في الغالب ، هم رجال السياسة ، ورجال الدين ، والآباء والأمّهات ، والمعلّمون والمعلّمات الذين يعيشون في قلق دائم من ثورة الشباب على ما رثّ من تقاليدهم ، وما بلي من أساليبهم ، وما تعفّن من معتقداتهم . ولذلك لا ينفكّون يقيمون السدود والحواجز في وجه تفتّح الشباب وانطلاقه . وهم إذ يفعلون ذلك لا يدركون إلى أيّ حدّ يجرمون بحقّ أنفسهم وحقّ الشباب .

فمثلما لا خير في أرضٍ ربيعها خريف أو شتاء ، كذلك لا خير في أمّة شبابها كهولة أو شيخوخة . وإنّه لمن الإثم

الذي لا يُغتفر أن نمسك على الشباب حرية الافصاح عمّا في كيانه من قوًى تتحفّز للوثوب ، فنجعله يدبّ حيث يستطيع أن يطير ، ونجعله يتردّد حيث يطلب الانطلاق . فالشباب ربيعنا ، ومن حقّنا أن ننعم به متفجراً من أعماقنا كما ننعم بالربيع متفجّراً من أحشاء الأرض ، فلا نحوّل ورده قطرباً ، وياسمينه عوسجاً ، وبلابله غرباناً ، ونسوره بوماً . وذلك ما نفعله بالتمام عندما نحرم الشباب حرية التعبير عن نفسه إن بالقول وإن بالفعل ؛ ثمّ نحصره في قوالب صلبة ، قاسية ، لا تلبث أن تضيق به فتتشقّق وتتطاير شظايا تدميه وتدمينا بالسواء . وقد تهلكه وتهلكنا . »

تلك هي الكلمة التي بعثت بها إلى الصحيفة العراقيّة . وهي ، كما ترى ، مقتضبة كلّ الاقتضاب . تنقر باب الموضوع ولا تلجه . وإن هي ولجته فلتتناوله بلمحة خاطفة لا تنقع غليل الشباب ولا غليلي . فمن حقّ الشباب عليّ ، وعلينا أجمعين ، إذا نحن تحدّثنا عنه أن نتحدّث بخشوع العابد ورهبة الواقف أمام سرّ عظيم . وأيّ سرّ أعظم من سرّ التجدّد الأبدي الصاعد بنا جيلاً بعد جيل ، وعلى مدى الدهر ، من الحيوان فينا إلى الإنسان، ومن الإنسان إلى ما فوق الإنسان — إلى الله ؟ ذلك هو التجدّد الذي لولاه لكنّا ما نزال حتى اليوم في المغاور والكهوف ، ولما كانت لنا هذه المدنيات والحضارات

نشيدها ثمّ نهدمها ، ثمّ نشيدها ثمّ نهدمها ، إلى أن نبلغ بها الغاية التي من أجلها وُجدنا وإليها نسعى في كلّ لحظة من وجودنا ، عن وعيٍ منّا وعن غير وعي — وأعني معرفة كلّ شيء والقدرة على كلّ شيء . ونحن مدينون بهذا التجدّد للشباب أوّلاً وآخراً .

وأنا إذ أعزو شرف التجدّد ومجده وجماله إلى الشباب دون غيره من أدوار الحياة ، فلست أقصد أن أقلّل من شأن الطفولة والصبا ، والكهولة والشيخوخة في بنيان الحياة البشرية . ولكن شأن هذه دون شأن الشباب بكثير . لأن الشباب هو المتن ، وتلك مقدماته وحواشيه وخواتيمه . هو النور وهي الظلّ . هو الدور الذي فيه تستكمل الحياة البشرية جميع معدّاتها ومقوّماتها من ذخائر جسدانيّة وروحانيّة . فاللحم والـدم يزخران بالحرارة والحركة . والعقل في ثورة على كلّ مجهول . والخيال نشيط ووثاب . والقلب في عطش قتّال وجوع مضنك إلى الحبّ والعدل والحرية . والإرادة صلبة ، قحّامة . والإيمان بالنفس وقدرتها على مغالبة الصعاب قوي ، وطيد .

لعلّ أكبر عقبة في طريق الناس إلى التجدّد والتقدّم هي أنّهم يألفون على التمادي نمطاً من العيش إلى حدّ أن يعتبروه غير قابل للتغيير والتحسين . بل إلى حدّ أن يعتبروا كلّ تغيير فيه خروجاً على النظام وتصدّعاً في بنيان حياتهم ، وبالتالي

خطراً جسيماً على راحتهم وبقائهم . فحالهم من هذا القبيل هي حال العصفور يألف قفصه ، والبهيمة زريبتها ، والنحلة خليتها . ذلك هو شأن الجماهير في كلّ زمان ومكان . ولولا قلّة من الناس تتطلّع أبداً إلى أبعد من عيدان أقفاصها ، وسياجات زرائبها ، ونخاريب خلاياها لما خطت البشريّة خطوة واحدة إلى الأمام .

تلك القلّة هي ، في الغالب ، من صفوف الشباب الذي يطلّ على الحياة بعينين ما اختطف بريقهما الملل من تكرار المشاهد ، وبفكر ما كبّلته التقاليد ، وبعزيمة ما نهكتها المعارك ولا شلّها الخوف من الفشل والهزيمة .

إن ثروة الشباب هي في صفاء بصره وبصيرته ، وفي مضاء عزيمته ، وفي ثورته على الركود والجمود ، وعلى القيود والسدود . وهذه الصفات هي التي تميز الشباب من غير الشباب، والتي لولاها لما جرى مركب في بحر ، ولا دار دولاب في برّ ، ولا اشتعلت نار في دار ، ولا خاطت إبرة ثوباً ، ولا شيد حجر فوق حجر ، ولا كان حرف وكان كتاب ، ولا انطلق لنا جناح في الفضاء ، ولا أضاء لنا سراج في ظلمة ، ولا امتدّ لنا صوت عبر القارات والمحيطات ، ولا كان لنا أيّ علم أو فن أو دين أو نظام ، ولا أيّ شيء من الأشياء التي بها نعيش ومنها تألّفت مدنيّاتنا الغابرة وتتألّف الحاضرة ، وستتألّف

التي بعدها .

وصفات الشباب هذه لا يندر أن تجدها في بعض الكهول والشيوخ الذين كان العمر وأثقاله أضعف من أن تسدل الغشاوات الكثيفة على أبصارهم وبصائرهم . فما ألفوا قيودهم ، ولا انكمشوا ضمن حدودهم وسدودهم ، ولا تخلّوا عن طموحهم في تغيير حال هم فيها إلى حال أفضل منها . أولئك هم الكهول والشيوخ الذين ما برحوا شباناً بأفكارهم وقلوبهم . فهم بركة وأيّ بركة للناس أجمعين . إلاّ أنّهم ، وإن قاموا بقسط من تجديد البشرية ، فالقسط الأكبر يقوم به الشباب من غير شك .

ولأنّ القديم يكتسب شيئاً من الروعة والقدسيّة لمجرّد قِدمه ، ولأن المألوف يتحصّن في قلوب الناس وأفكارهم لمجرّد أنّه مألوف ، ولا يكلّف الناس كبير عناء في مسايرته على حدّ قول المثل العاميّ : « نحسٌ تعرفه خير من جيد تتعرف عليه » — لذلك كان التجدّد — أيّ تجدّد — ضرباً من الثورة . ولذلك كانت الثورة في دم الشباب الذي يأبَى إلاّ التجدّد . ولولا تصلّب القديم وتعنّت المألوف لما كانت الثورات من أيّ نوع كان . ولكن القديم يرسل جذوره بعيداً في تربة الحياة البشريّة فيتعذّر اقتلاعه إلاّ بمشقّة بالغة . والمألوف يقبض على قلوب الناس وأفكارهم ولا قبضة الأخطبوط ،

فيصعب التخلّص منه بغير الكثير من الألم .

لو أنّ الناس كانوا أكثر اتّعاظاً بدروس ماضيهم ، وأعمق تفهّماً لواقع حياتهم لجعلوا قديمهم ومألوفهم من المرونة والطواعية لمتطلبات التطوّر بحيث يتفادون الثورات وجميع ما يرافقها من عنف ومن آلام جسدانيّة وروحيّة هائلة . إلاّ أنّهم بماضيهم لا يتّعظون ، ولواقع حياتهم لا يفهمون ، ويعيون حسيرة وقلوب واجمة إلى مستقبلهم يتطلّعون . ولذلك تراهم يتكاتفون على كبح جماح شبابهم ، وعلى إقامة الحدود والسدود في وجه قوى التجدّد التي تجيش في داخله وتتحفز للانطلاق . أما النتيجة المحتمة فالثورة التي قد تكون دمويّة وقد لا تكون ، ولكنّها في الحالتين تسبّب آلاماً على قدر ما تلاقي من معاندة .

أيّ دين قام في الأرض ولم يكن ثورة على دين قبله ؟ أيّ علم ترعرع بين الناس ولم يكن ثورة على جهلٍ ألفه الناس فأحبّوه واستسلموا له ؟ أيّ فنّ شقّ طريقه في دنيا الفنون من غير أن يشقّ أثلاماً من الكدر والامتعاض في قلوب الذين ألفوا غيره وما ألفوه ؟ كلّ اختراع ثورة . كلّ اكتشاف ثورة . كلّ فكرة جديدة ثورة . كلّ زيّ جديد إن في اللباس ، وإن في المأكل والمشرب والمأوى ، وإن في اللغة والأدب ، وإن في الصناعة والتجارة ، أو في الدراسة والعبادة ، أو في

التقاليد والنظم السائدة ـ ثورة . وهذه الثورات هي التي بها تتجدّد الحياة من يوم ليوم ، ومن جيل لجيل . والشباب هو الذي يرفع ألويتها ، ويمشي في طليعتها غير مبالٍ بما يقدمه في سبيلها من تضحيات غاليات . . . فلا ماله ، ولا جماله ، حتى ولا دمه بأعزّ لديه من الهدف الذي يسعى إليه ، ومن المثل الأعلى الذي اتخذه لنفسه رائداً وإماماً .

فما أجهلنا نحاول أن نخنق ثورات الشباب وهي ما تزال أجنّة ! فلا يرتفع صوت الشباب ضدّ ظُلامة من مظالمنا ، أو ضد تقليد من تقاليدنا ، أو طقس من طقوسنا ، أو عقيدة من عقائدنا ، أو نمط من أنماط معيشتنا حتى ننادي بالويل والثبور ، وتعترينا رجفة من سوء المصير . كذلك نادى الكتبة والفريسيون عندما طرقت مسامعهم كرازة المسيح . وكذلك نادى القرشيون عندما قام محمد بدعوته . وكذلك نادى أهل أثينا عندما راح سقراط ينشر أفكاره في الناس . وكذلك نادى رجال الدين في الأجيال الوسطى عندما قال قائل إن الأرض تدور . ولو شئت أن أعدّد الأمثلة التي قامت فيها قيامة المحافظين على كلّ مجدّد في الأرض لما انتهيت .

إلاّ أن ما كان جديداً في الأمس أصبح اليوم قديماً . وبتنا نسمع أصواتاً تتعالى من هنا وهناك طالبةً تجديده . ونسمع مع هذه الأصوات أخرى تهدر وتزمجر مطالبة بإبقاء القديم

على قدمه . فهو من القداسة والكمال بحيث لا يمكن لأيّ إنسان أن يطاله بقلم أو بلسان . وإنّي لأسألكم : أيّ المنطق هو منطق هؤلاء الغيارى على القديم ، والقائلين بقدسيته وعصمته ؟ وهل يرضون لو تعود بهم الحياة القهقرى إلى حيث كان أسلافهم منذ آلاف الأجيال ؟ أم تراهم يعتقدون أن ما لديهم من تقاليد وطقوس ومعتقدات هو غاية الغايات ونهاية النهايات فلا زيادة بعده لمستزيد ؟ وإذن فما شغلنا على الأرض من الآن وإلى الأبد إذا لم يكن لنا من أمل في أن نجدّد ونتجدّد ، وأن نبلغ من المعرفة والمقدرة والحرية ولو قيراطاً فوق ما بلغناه حتّى اليوم ؟

إنّنا نتوارث التقاليد والنّظم والعوائد والعقائد جيلاً عن جيل . والتقاليد والنظم والعوائد والعقائد الموروثة من شأنها أن تتحجّر وتتعفّن وتنقلب تعصّباً وكرهاً في فكر الوارث وقلبه ما لم يهضمها وجدانه ويجعلها دماً من دمه ولحماً من لحمه . وإذ ذاك فمن حقّه أن يتناولها بالفحص والتمحيص ، وبالشك والتجريح حتّى إذا استساغها تمسك بها . وإذا لم يستسغها راح يفتش له عن أخرى يستسيغها . فالإيمان بالله مثلاً — وبغير الله — لا يصحّ أن ينتقل بالوراثة كما ينتقل المال والمتاع والعقار . فهو عمليّة باطنيّة وصلة ذاتيّة بين المؤمن والمؤمَن به . والشكّ باب الإيمان . ومن حقّنا أن نشكّ في ما ورثناه

عن أسلافنا . ومن حقّ شبابنا أن يشكّ في ما ورثه عنّا .

لذلك أقول إنّه من العار علينا أن ننادي بالويل والثبور كلّما تصدّى شبابنا لعقيدة من عقائدنا ، أو تقليد من تقاليدنا بكلمة أو بحركة أو بشكّ . وكان أجدى لنا ألف ألف مرّة أن نطلق له الحرية ثمّ أن نحاول إقناعه بدلاً من أن نضع شكيمة في فمه أو أن نحطّم قلمه . فالحقّ في غنى عن دفاعنا إذا كنّا على حقّ . وإذا كنّا على ضلال فمرحباً بالشكّ منجياً من الضلال .

ونحن اليوم في دنيا العرب أحوج ما نكون إلى شباب يجرؤ على أن يشكّ ، ثمّ يجرؤ على أن يعمل للخلاص من شكّه . فالشكّ إذا طال أمسى شللاً . وشبابنا هو الثروة التي أين منها ذهبنا الأسود والأصفر وكلّ ما تنتجه أرضنا من ثمار وحبوب وبقول ؟ هذه للنفاد والبوار ، وتلك للبقاء والازدهار . وحري بنا أن نستثمر هذه الثروة إلى أقصى حدّ ، فنتاجر بها قبل أن نتاجر بالبترول ، وبالخام والشيت ، ونوليها من عنايتنا أضعاف أضعاف ما نوليه الدوالي في كرومنا ، والسنابل في حقولنا ، والأموال في مصارفنا ، والكراسي في مجالسنا . ولا نقضي عليها بما نفرضه على الشباب من قيود ، وما نقيمه في وجهه من سدود ، بل نطلق للشباب حرية القول وحرية العمل إذا نحن شئنا أن ننعم بمواهبه وبركاته ، وأن نتفادى

غضباته وثوراته .

ولا يقولن قائل إن تلك الحرية قد تؤدي بنا إلى الفوضى . فالفوضى هي ما نحن فيه . ولن يخرجنا منها إلاّ الشباب المجدد والمتجدّد . ويقيني أن ما في شبابنا من حرارة ، وما في عقله من اتزان ، وما في قلبه من إيمان بالعدل والنظام والإخاء والحرية لكفيل بأن يقطع بنا شوطاً بعيداً نحو عالم ألطف جوّاً ، وأفسح أفقاً ، وأعذب صوتاً من عالم نعيش فيه الآن . فليس كالشباب خزانةٌ نأتمنها على آمالنا . وليس كالشباب مجدداً لشباب الحياة . وليس كالحرية غذاءٌ للشباب وحافزاً له على الخلق والإبداع والسير بالقافلة إلى الواحات المطمئنة والمراعي الخصبة .

المِلاز الأول والأخير

يدأب الإنسان في دنياه ليكفل لنفسه عيشاً رغيداً وعمراً مديداً . فلا ينفكّ يحتال على الطبيعة بكلّ ما أوتيه من قوى بدنيّة وعقليّة لينعم بخيراتها ويدرأ ويلاتها . ولكن أتعابه ذاهبة أبداً أدراج الرياح . فلا عيشه يصفو من الكدر ، ولا عمره يمتد أبعد من سنوات معدودات . لئن شبع بطنه إلى حين فقلبه في جوع دائم . ولئن تحصّن جسمه من الحرّ والقرّ والعواصف ففكره أبداً ريشة في مهبّ الريح . ولئن أمن غدر الوحش فليس يأمن غدر أخيه الإنسان ، ولا غدر نفسه . وعلى الإجمال فراحته عبّارة من تعب إلى تعب . وشبعه هدنة بين جوع وجوع ، وفرحه فترة انتقال من حزن إلى حزن ، وصفوه هدأة بين كدر وكدر ، وطمأنينته همزة وصل بين قلق وقلق .

لكأنّي بالإنسان في دنياه منخلٌ ، وبكلّ ما يجمعه من حطام وعلم وفنّ ، وكلّ ما يرتبه لنفسه من طقوس وأنظمة ، دقيقٌ في ذلك المنخل . فالدقيق باقٍ في المنخل ما دام المنخل في حالة هدوء واستقرار . إلاّ أنّك ما إن تهزه هزّة بعد هزّة

حتّى يتساقط كلّ ما فيه من الدقيق فلا يبقى غير النخالة . وإذ ذاك تعود فتملأه من جديد . وتعود تهزّه . وهكذا دواليك .

والإنسان ما دامت له الراحة والعافية وصفو البال دامت له المقدرة على الاستمتاع بما جنت يداه من خير ، وبما استنبطه فكره من اختراعات ، وابتدعه خياله من علوم وفنون ، وبما في الكون حواليه من بهجة وجمال ، وبما في قلبه وقلوب ذويه وأصحابه من محبة وصداقة ، وبما اكتسبه لنفسه من صيت أو جاه أو سلطان . ولكنه سرعان ما يفرغ من كلّ ما فيه ، إلاّ النخالة ، حالما تهزّه يد الأقدار هزّة عنيفة . وهذه الهزّة قد تكون خسارة مال أو عقار ، وقد تكون نكسة سياسيّة أو لوثة اجتماعيّة ، وقد تكون خيبة في حبّ أو فشلاً في مشروع ، وقد تكون إهانة من غريب أو قريب ، وقد تكون موت حيوان عزيز أو طفل حبيب ، إلى آخر ما في جعبة الأقدار من سهام لا تنفكّ تُريشها على الإنسان فتنغّص عليه عيشه . فكيف بذلك السهم إذا كان مرضاً عضالاً لا تنجح فيه رُقْية راقٍ ، ولا سحر ساحر ، ولا طبّ طبيب ؟

يحكى عن أبي حازم الأعرج أنّه دخل مرّة على هارون الرشيد فقال له الرشيد : عظني يا أبا حازم ، فقال : دونك والقرآن موعظة . ثمّ طلب الرشيد شربة ماء فقال له الأعرج : إذا انحبست عنك شربة الماء أتفديها بملكك أم لا ؟ أجاب :

نعم ، فقال : وإذا انحبست فيك ألا تفديها بملكك ؟ قال : نعم . فقال أبو حازم : إذن لا خير في ملك يباع بشربة وبولة .

إنّها لموعظة بليغة حقّاً . ففي حضرة الوجع المؤدي إلى الموت لا يجدي فتيلاً مال أو سلطان ، ولا صيت عريض وجاه رفيع ، ولا علم واسع وفنّ متفوّق ، ولا الحصون ولا الجيوش ، ولا شيء ممّا يسعى إليه الإنسان في دنياه وعبثاً يحاول أن يتحصّن به من الحزن والألم والموت . فذلك كلّه يمضي هباء في الفضاء عندما تقع الواقعة .

وأبلغ من حكاية أبي حازم مع الرشيد حكاية بوذا مع المرض والشيخوخة والموت . فممّا يروى عنه أنّه شبّ في قصر والده وتزوّج وأنجب غلاماً وهو لا يعرف شيئاً عن كلّ ما ينتاب الناس من أوجاع وأوصاب . فقد كان والده الملك حريصاً على أن يُقصي عن سمعه كلّ ما من شأنه أن يُدخل الكدر إلى قلبه والشكّ إلى فكره . وذات يوم أصرّ الشاب على الخروج من القصر في نزهة . فأمر الوالد بأن تزيّن مساكن المدينة بأبهى الزين ، وبأن تفرش شوارعها بالرياحين ، وبأن لا يخرج إليها غير الأصحّاء والأقوياء من رجال ونساء . وكان كما أمر الملك . إلاّ أنّ الآلهة أبت إلاّ أن تعكر على الشاب نزهته . فما كاد ينطلق في مركبته البديعة حتّى وقع بصره على رجل مطروح على الأرض وقد ركبته القروح

والدمامل حتّى بات مجرّد النظر إليه يجرح العين ويقزّز النفس . وكانت الآلهة هي التي وضعته هناك بحيث يراه بوذا وسائقه ولا يراه غيرهما . فما إن وقعت عين بوذا عليه حتّى انقبض قلبه فسأل السائق :

« ما هذا ؟ »

فأجابه السائق: إنّه رجل كان صحيحاً ثمّ ابتلي بهذا المرض. فقال بوذا : وهل هو وحده من بين كلّ الناس مصاب بهذا المرض ، أم أنّ باقي الناس — وأنا في جملتهم — معرّضون لمثل مرضه ؟ فردّ عليه السائق أن كلّ الناس — وهو في جملتهم — معرّضون لذلك . عندئذٍ أمر بوذا حوذيه بالعودة إلى القصر ، وقد طار الفرح من قلبه وحلّت محلّه كآبة لا تنفكّ تسأل : « كيف يفرح الناس ما داموا مهدّدين بالمرض ؟ »

ولكن بوذا ما لبث أن حاول النزهة ثانية وثالثة . فوقع في المرّة الثانية على شيخ في منتهى الوهن والبشاعة . وفي المرّة الثالثة على ميت يسيرون به إلى المقبرة . وما كان يدري قبل ذلك أنّ الشباب ينتهي إلى شيخوخة ، وأن الحياة ختامها الموت . وعندما فهم من الحوذي أنّه وجميع الناس عرضة للشيخوخة وللموت عاد إلى القصر وانطوى على نفسه . ثمّ ما طال أن هجر أباه وزوجه وطفله ، وانقطع زماناً عن العالم

ولم يعد إليه إلاّ من بعد أن اهتدى إلى حقيقة المرض والشيخوخة والموت ومن خلْفها الحقيقة الكبرى — حقيقة الحياة المؤدية إلى الراحة الأبديّة ، وقد سمّاها « النرفانا » . وهذه النرفانا عينها هي التي دعاها المسيح « ملكوت الله » ودعاها محمّد « الجنّة » .

ليس قصدي أن أحدّثك عن النرفانا وملكوت الله والجنّة . ولكن قصدي أن ألقي في خلدك أنّ لوجودك هدفاً يجدر بك أن تعرفه. وأنّ المال والعلم والفنّ والقوّة والجاه والشهرة وما إليها يستحيل أن تكون ذلك الهدف ما دامت قاصرة عن أن تردّ عنك غوائل المرض والشيخوخة والموت وما يسبقها ويرافقها من حزن وتحرّق وألم . وأنّك إن لم توفّق إلى اكتشاف هدفك بنفسك فحريّ بك أن تتكل على الذين سبقوك إلى اكتشافه . فلا بوذا ولا المسيح ولا محمّد من الذين يليق بك أن تستخفّ بأفكارهم وأقوالهم وأعمالهم ، أو أن تشكّ مثقال ذرة في صدق نيّاتهم . ثمّ إنّك في خضمّ هذه التيارات الصاخبة التي تتقاذفك اليوم من كلّ جانب وفي كلّ صوب لفي أمسّ الحاجة إلى حقيقة تفزع إليها وتستأنس بها وتتخذها ملاذاً لك في الملمّات . إنّك لفي حاجة إلى هدف يتبدّل كلّ ما في الأرض ولا يتبدّل، بل تزول الأرض ولايزول . وهذا الهدف لن تجده في غير الدين إذا أنت استطعت أن

تستقيه من منابعه الصافية .

لست بجاهل أن كلمة « الدين » قد اتخذت على كرّ العصور ألواناً غير مستحبّة في نظر الكثير من الناس ، وعلى الأخصّ في هذا الزمان . واللوم في ذلك ليس على الدين بل على الذين انحرفوا به عن أهدافه السامية ، فتمسّكوا بقشوره ونبذوا اللباب ، ثمّ انتهوا بأن جعلوه مجموعةً من الطقوس الجوفاء ، والصلوات التي تحرّك اللسان دون القلب ، والشفاهَ دون الفكر والوجدان . مثلما جعلوه ركاماً من المشاحنات اللاهوتيّة ، وسيف تفرقة بين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان والله . والدين الذي لا يغمر القلب بالمحبّة ، والفكر بالإيمان ، والروحَ بالاطمئنان ليس بالدين الذي يُرتجى للخلاص ويصلح ملاذاً من الشدائد والمحن والموت . ذلك هو الدين وقد عكر صفاءه جهلُ الشاربين منه على حدّ ما تعكر الإبل المياه التي ترتوي منها إذ تغوص فيها إلى الركب .

لئن استطاع الجهل أن يحجب نور الدين فلن يستطيع أن يبتلعه . فالشمس تحجبها الغمامة ولكنّها لا تمحقها . ولئن عكر الأغبياء والادعياء مياه الدين فلن يعكروا منها غير ما انساب بعيداً عن المنبع . أمّا المنبع فلن تطاله أقذارهم وأكدارهم . وإذ ذاك فحذار أن تنكر الشمس لأن غيمة حالت بينك وبينها . وحذار أن تحكم على الينبوع بالفساد

لأنّ الشاربين منه بعيداً عن مصبّه قد لوّثوا مياهه . حذار أن تنفر من الدين لأنّ السواد الأعظم من المتديّنين براء من الدين .

إنّما الدين هدف وطريق . أمّا الهدف فالخلاص من حياة تتحكّم فيها الأمراض والأحزان والشيخوخة والموت إلى حياة ليس فيها لهذه الآفات كلّها ولا ظلّ سلطان . وأمّا الطريق فالإيمان بأنّ في الكون قدرة مبدعة ، منظمة ، وانّ نظامها يقضي على الإنسان ، إذا هو شاء بلوغ الهدف ، أن يغالب ما فيه من غرائز تكبّل خطاه في السير نحو الهدف ؛ وانّ تلك القدرة قد سلّحته بكلّ ما يمكّنه من الغلبة . ففي مستطاعه أن يقهر الشكّ باليقين ، والعنف باللطف ، والشهوة بالعفّة ، والجهل بالمعرفة ، والبغض بالمحبّة . وإذ ذاك فهو من الدين في لبّه ، والدين ملاذه الذي ما قبله ولا بعده من ملاذ .

ماهية الأدب ومهمته

من أهمّ حاجاتنا وأنبلها وأقدسها حاجة التعبير عن النفس . بل هي الحاجة الأهمّ والأنبل والأقدس على الإطلاق ، والّتي لولا شعورنا بها لما شعرنا بوجودنا ولما عرفنا شيئاً عن أنفسنا وعن الكون الذي نحن منه وفيه . وهي حاجة في طبيعة الحياة التي منها حياتنا قبل أن تكون حاجة في طبيعتنا . أوَليست حياتنا على صورة الحياة الأمّ ومثالها ؟ فهذه الكائنات التي تملأ الفضاء ، والتي لا حصر لاعدادها ، ولأشكالها وألوانها ، ليست سوى تعبير الحياة عن ذاتها لذاتها . ولولاها لكانت الحياة عدماً لا يُحِسّ ولا يُحَسّ ، ولا يعرف ولا يُعرف .

والتعبير عن النفس ليس حاجة في الإنسان وحده ، بل في كلّ ذرّة وكلّ جسد من الذرّات والأجساد التي يتألّف منها الكون ، منظوره وغير منظوره ، وعاقله وغير عاقله . تنوّعت الأساليب والمظاهر ، أمّا الحاجة فواحدة . هكذا تعبّر الشمس عن ذاتها بحركتها وبما تبثّه في الفضاء من حرارة ونور . والزهرة بما تنشره في الهواء من أريج . والشجرة بما تتفتّق عنه من ساق وفروع ، وأغصان وأزهار ، وأوراق

وأثمار . والذين عاشروا الطير والحيوان يعرفون الكثير عن طبائع هذه المخلوقات وعن شتّى الحركات والأصوات الّتي تعبّر بها عن أحاسيسها ما بين قلق وإيناس ، ووجل وجذل ، وجوع وشبع ، ووجع وغبطة ، وغيظ ورضا ، وذلّ واعتزاز وغيرها، وغيرها من المشاعر البدائية الّتي يشترك فيها الإنسان والحيوان بالسواء .

إلاّ أنّ التعبير عن الذات في سائر الكائنات الّتي دون الإنسان هو تعبير عفوي يلازم حالات بعينها . فلا يتغيّر ولا يتبدّل ، بل يبقى على وتيرة واحدة في الحالة الواحدة . وعندنا من ذلك التعبير الشيء الكثير . كالدمع في حالة الحزن ، والضحك في حالة الفرح ، وتقلّص عضلات الوجه ثمّ الصراخ عند الألم ، وتوتّر الأعصاب واهتياج الدم عند الغضب ، وانكسار الجفن عند الخيبة ، وإشراق العين عند النصر ، وانقباض القلب عند الخوف ، وكلّ حركة وصوت يصدران عنّا بطريقة عفويّة لا دخل فيها للفكر أو للإرادة . وهذا النوع من التعبير العفوي لا يأتيه الكذب ولا الرياء ولا التصنّع من خلفه أو من أمامه . فهو أبداً صادق وعين الصدق . وهو على عكس التعبير الذي للنطق وللعقل وللخيال والإرادة فيه قسط كبير . فنحن مكرهون معه على استعمال أقصى ما نملكه من قوّة التمحيص والتمييز والتحليل والاستنتاج لنفرّق بين كاذبه وصادقه ،

وسليمه وعليله . وكثيراً ما تعمينا رغوته عن صريحه ، ويصرفنا بريقه عن زيفه . وهذا الضرب من التعبير هو ما أدعوه « التعبير الإنساني » تمييزاً له من التعبير العفويّ الذي فرضته الغريزة على الكائنات التي دون الإنسان .

منذ أن تعلّم الإنسان النطق ، وتفتّح عقله وخياله ، وتنبّه وجدانه ، واستيقظت إرادته ، وأحسّ نفسه كائناً منفصلاً عن سائر الأكوان ، ثمّ مشى في طريق الخير والشرّ — منذ ذلك الحين الذي لا يعرف أحدٌ مقامه في دورة الزمان ، أخذ الإنسان يعبّر عن نفسه بالكلام . فكان الحرف ، وكان المقطع ، وكانت الكلمة ، وكانت الأسماء والأفعال وروابطها ومعانيها . فكانت اللغة بقواعدها ، أو « اللفظ المفيد » على حدّ تعبير ابن مالك :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم اسم وفعل ثمّ حرف الكلم

ولكن الحرف كان بغير صورة . فكانت الكلمات والعبارات كذلك بغير صورة . فلم يكن من سبيل إلى حفظها إلاّ في الذاكرة وعن طريق السمع لا غير . وما أكثر ما تخطىء الأذن ! وما أكثر ما تخون الذاكرة ! فهي لا تؤتمن إلاّ إلى حدّ ، ولقد تقلب الأمور رأساً على عقب .

ثمّ كان أن صوّر الإنسان الحرف ، واستنبط الحبر والورق

والقلم فكانت الكتابة والقراءة ، وكان الكتاب . ثمّ استنبط فنّ الطباعة . فانتشر الكتاب انتشاراً واسعاً . وأصبح في مستطاع كلّ من يملك ثمنه ويحسن القراءة أن يقتني منه ما يشاء . بل إن دور الكتب العامة قد يسرت مطالعة الكتب بالمجان للذين لا طاقة لهم على شرائها .

لقد تمّت هذه الأمور جميعها على مراحل لا يعلمْ إلاّ الله كم استغرقت من آلاف آلاف الأجيال . وهي إن دلّت على شيء فعلى عناد الإنسان في تثبيت نفسه ضدّ كلّ العناصر الّتي تقاومه في الكون ، ثمّ على رغبته في سحق تلك المقاومة والتسلط على عناصر الكون بأسرها تسلّطاً لا ينازعه فيه منازع . وهذا الصراع الهائل الذي لا مهادنة فيه ولا مسالمة ما بين الإنسان والأكوان من حواليه هو الطريقة المثلى الّتي يعبّر بها الإنسان عن نفسه . فتنكشف له مكامن الضعف والقوّة فيها . وما الكتاب سوى السجلّ الذي يدوّن فيه كلّ ما انكشف له من ضعف نفسه وقوّتها ، والذي ، بانتقاله من السلف إلى الخلف ، يجعل من الحياة البشريّة سلسلة متواصلة الحلقات ، وطريقاً ظاهر المعالم .

ولأنّ الإنسان يحارب على جبهات عدّة في آنٍ معاً فقد ارتأى أن يكون لكلّ جبهة سجلّ . فالعلم على أنواعه هو سجله للمعارك الّتي يخوضها في كلّ لحظة من وجوده ضد ما

أغلق في وجهه من عناصر الكون المحسوس . فهو يريد أن يعرف خواصها ، ومممّاذا تتركّب ، وكيف ، والقوانين التّي تسير عليها كيما يتاح له أن يستعبدها لغاياته بدلاً من أن يكون عبداً لها .

والدين والفلسفة هما السجلان اللذان يحتفظ فيهما بما اهتدى إليه من الأجوبة على الأسئلة التّي ما برحت نفسه تطرحها عليه منذ أن وعى نفسه كإنسان : من أنت ؟ ومن أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟

والفنون هي السجلات التّي تشهد بعراكه ضدّ كل بشاعة ، وبفتوحاته في دنيا الجمال ، أكان جمالاً في الإيقاع ، أم في الحركة ، أم في الخطوط ، أم في الألوان ، أم في كلّ ذلك معاً .

والسياسة والاجتماع والاقتصاد وما إليها هي سجلات انتصاراته وانكساراته في تركيز علائقه مع أبناء جنسه على أسس من العدل والمساواة . فلا تتصدّع من حين إلى حين بهزّات عنيفة تأتيها من الطمّاعين والجشعين والسكارى بلذّة الجاه والسلطان ، أو من الجياع والمحرومين والمنبوذين والمظلومين .

والتاريخ هو السجلّ العام الذي يصل ماضيه بحاضره فيلون فيه مجمل ما توصّل إليه في صراعه مع الطبيعة ومع

نفسه ومع أبناء جنسه .

إلاّ أنّ العلوم والفنون والديانات والفلسفات على أنواع لا يعبر كلّ منها إلاّ عن جانب واحد من صراع الإنسان مع نفسه ومع الأكوان من حواليه . فكأنّها الجداول والسواقي والأنهار تنساب في مجار مستقلّة بعضها عن بعض فلا تشكل بحراً أو محيطاً . أمّا المحيط الذي تلتقي فيه جميع تلك المجاري فالأدب . ولقد كان لزاماً على الإنسان أن يخلق ذلك المحيط فخلقه . وكان من جميل فطنته أن جعل ذلك المحيط بغير شطوط . فحدوده حدود الطاقة الإنسانيّة على الصراع ضدّ ما يقيد حرية الإنسان في الخلق ، ويحول دونه ودون الاستمتاع بحياة لا يشوبها قلق أو خوف أو ألم ولا يقف الموت لها بالمرصاد ؛ فمن عرف حدود الطاقة البشريّة على الكفاح في سبيل الوصول إلى أهدافها عرف حدود الأدب . أمّا أنا فلست أعرف لتلك الطاقة حدوداً . ولذلك لا أعرف حدوداً للأدب فلا أتنطح لتحديده أو تعريفه في كلمات معدودات .

على أنّني إذا أحجمت — والأصحّ إذا تورّعت — عن تحديد الأدب وتعريفه فليس في إحجامي أو تورعي ما يحول دوني ودون التحدّث عن الأدب . مثلما ليس في جهلي لكُنه الحياة ما يمنعني من أن أحياها في كلّ نبضة من نبضاتي وحركة من حركاتي ، ولا من أن أتحدّث عنها بغير انقطاع . فحسبي

صلة بالأدب أنّه قد تغلغل في لحمي ودمي ، وانّه خادنني وخادنته ، وعايشني وعايشته ، وأكلني وشربني ، وأكلته وشربته منذ أن دخلت هيكله وصليت في محرابه وأنا من شبابي في مثل ما يكون العود وقد تورّمت أكمامه وتفتّحت رؤوسها عن خضرة ندية ، حييّة .

وما كان ذلك شأني مع الأدب إلاّ لأني وجدت فيه المعبّر الأفضل عن النفس البشريّة . ومتى قلت عن « النفس البشريّة » فقد قلت عن العالم بأسره . لأنّ العالم بآزاله وآباده وأبعاده ، وبكلّ ما فيه ومن فيه ينعكس في تلك النفس انعكاس السماء في قطرة الماء . ومن هنا عظمة الأدب والمكانة السامية التي يحتلها ما بين جميع الجهود البشريّة ، والتي لا يرقى إليها أيّ جهد يحصر همّه في ناحية واحدة من نواحي الحياة البشريّة . وكلّ الجهود البشريّة — ما عدا الأدب — تطلّ على الحياة من نافذة واحدة . في حين يتناول الأدب الحياة من كلّ ناحية. فهو شامل وكلّ ما عداه من الجهود البشرية محدود بالحدود التي أقامها بنفسه لنفسه .

هكذا يتناول الأدب الدين وما هو بالدين . ويتناول الفلسفة وما هو بالفلسفة . والعلم وما هو بالعلم . والتاريخ والسياسة والاقتصاد وما هو بالتاريخ أو بالسياسة أو بالاقتصاد . ويتناول هذه الأمور كلّها بأسلوب ليس فيه من الدين زماتته ،

ولا من الفلسفة جفافها ، ولا من العلم تعقده ، ولا من السياسة سفسطتها ، ولا من الاقتصاد تدجيله . ولكنّه أسلوب يثير فكر القارىء وخياله ووجدانه ، إذ يُدخله دنيا هي دنياه وكأنّها غير دنياه . فقد يبصر فيها ، إلى جانب الأمور التي يعرفها ، أغواراً وأعالي ما كان يحلم بها من قبل . وقد تنكشف له معالم كانت تتراءى له قبلاً كما من خلال ضباب . وقد تستيقظ فيه قوى ما كان يعرف أنّها هاجعة في أعماقه .

لو أن مؤرّخاً من معاصري هوميروس كتب تاريخ حرب طروادة لما كان لنا في تاريخه ولا وشل من بحر من المتعة التي نلقاها في الالياذة . فالالياذة،وهي مزيج من التاريخ والأساطير، تفعل بالقارىء والسامع ما ليس يفعله التاريخ وحده ولا الأسطورة وحدها ، ولا التاريخ والأسطورة مجتمعين . وذلك لأنّها تتعدّى نطاق الاثنين فتنبسط أمامنا حومةً فسيحة تصطرع فيها أرباب السماء إلى جانب أرباب الأرض ، وتندلع على أديمها نيران الشهوات والنزعات البشريّة ، من أرفعها إلى أحطّها ، ومن أقدسها إلى أنجسها . فالبطولة والأمانة والشهامة والحبّ والواجب والتفاني نصيب منها كبير . ومثله للجبانة والخيانة والخساسة والبغض والتهرّب من الواجب وإيثار النفس. ونحن إذ نشهد ذلك الصراع نشعر كأنّنا الميدان والمحاربون في آنٍ معاً ، وإن فصلتنا عن الأحداث التي تدور عليها الملحمة

قرون وقرون . فالإنسان في القرن العشرين بعد الميلاد هو عينه في القرن التاسع قبل الميلاد . تبدّلت الظروف . أمّا القلب البشريّ فهو هو . وأمّا صراع الإنسان مع نفسه ومع السماء والأرض فهو هو .

ولو أنّ جيشاً من رجال الدين ، وعلماء النفس ، وأساتذة الاجتماع ، وأساطين القانون تجمّعوا معاً لما استطاعوا أن يؤلفوا لنا رواية كرواية دوستويفسكي « الاخوة كرمازوف ». ففي هذه الرواية الفريدة نرتفع مع الأب « زوسيما » إلى درجة الإشراق الروحي والانخطاف بنور الألوهة . وننحدر مع « سمردياكوف » إلى حالة البهيمة ، وندور مع الوالد كرمازوف وأبنائه ديمتري وايفان وأليوشا في دنيا من الشهوات الجامحة ، والأحاسيس المبهمة ، والأفكار القلقة ، والإيمان المطمئن ، والإلحاد المتطرّف وكلّ ما يرافق هذه من تردّد وإقدام ، وحيرة وثقة ، وانقباض وانبساط ، ومرارة وحلاوة . وتلك الدنيا هي دنيانا . ونحن نخرج منها شاعرين أنّ الإنسان سُلّمٌ أسفله في الأرض وأعلاه في السماء ، وان درجاته لا تكاد تُعَدّ ، وأنّ البعض منّا ما يزال في أسفل السلّم والقليل القليل قد بلغ أعلاه . أمّا السواد الأعظم فما يزال بين بين .

ما ذكرت الإلياذة و « الاخوة كرمازوف » إلاّ لأمثّل

بهما على أنّ الأدب يشمل كلّ الجهود البشريّة ولا يشمله أيّ جهد منها . وفي استطاعة أيّ أديب أو متأدّب أن يعدّد الأمثلة إلى ما لا نهاية له . وهل من يجهل أن كلّ الأبواب مباح للأدب ؟ فهو في المعبد والخمارة متى شاء ، وفي الحانوت والمعمل ، والمدرسة والبيت ، والمختبر والمستشفى ، وفي البحر والبرّ ، وبين النجوم ومع الرعاة ، وفي كلّ مكان يستطيع الإنسان أن يطأه برجله أو بجناحه أو بخياله ، وكلّ زمان يتصل بحياته من قريب أو من بعيد . أينما كان الإنسان فالأدب هنالك . ومهما فكّر الإنسان واشتهى ، وتخيّل وتصوّر ، وقال وفعل ، فكلّ ذلك في أدقّ تفاصيله ومعانيه ، من شأن الأدب . وعلى الاجمال فما من كبيرة أو صغيرة تهمّ الإنسان إلاّ جعلها الأدب بعضاً من همّه .

وإذن فمهمّة الأدب هي التعبير عن الإنسان وكلّ حاجاته وحالاته تعبيراً جميلاً ، صادقاً من شأنه أن يساعد الإنسان على تفهم نفسه وتفهم الغاية من وجوده ، وأن يمهّد له الطريق إلى غايته . وإذن فللأدب رسالة سامية . وكلّ من أنكر على الأدب رسالته كان مارقاً من الأدب .

ولكن الإنسان كائن ولا كسائر الكائنات الّتي نعرفها على الأرض . فبينا سواه من الكائنات الحيّة يعيش لساعة هو فيها فيأكل ويشرب ويتناسل ثمّ يموت ، نراه يعيش في

الماضي والحاضر والمستقبل . فيأكل ويشرب ويتناسل ولكنّه يتمنّى لو أنّه ينعتق من حاجة الأكل والشرب والتناسل . ويموت ، ولكنّه يتمنّى لو أنّه يتغلّب على الموت . وتراه – فوق ذلك – يطمح إلى معرفة كلّ ما في داخله وخارجه من أشياء محسوسة وغير محسوسة . فلا حدّ لطموحه واندفاعه ، ولا نهاية لأمانيه وأشواقه . وكأنّ ما حقّقه إلى اليوم من بعض أمانيه وأشواقه كان إيذاناً له بأنّه محقّق جميع أمانيه وأشواقه يوماً ما . فها هو ، ولا أجنحة له ولا زعانف ، يسبق النسر في أجوائه والحوت في بحاره . وها هو ، وسمعه لا يمتدّ إلاّ إلى فراسخ معدودات ، يسمع في أقصى الجنوب همسةً تنطلق من أقصى الشمال . وها هو ، وبصره كفيف في الظلمات وحسير في النور دون القصي من المسافات ، يقتنص البرق فيحول الظلمة نوراً ويغزو الأبعاد الشاسعة فيقيسها لا بالذراع والفرسخ بل بسنوات من الضوء . والضوء ، كما تعلمون ، يقطع في الثانية ١٨٦،٠٠٠ ميل . وهنالك الملايين من العوالم المنثورة في الفضاء التي تبلغ الأبعاد فيما بينها المليون ونصف المليون من السنوات الضوئيّة . وأبعد تلك العوالم التي أتيح له مراقبتها حتّى اليوم تفصله عن عالمنا الشمسي مسافة ألف مليون من السنوات الضوئية !

ناهيك بربوات العوالم الدقيقة المذرورة في الأثير والتي

لا يدركها السمع والبصر ولا أيّة حاسة من حواس الإنسان ، أو أيّة حيلة من الحيل التي استنبطها لتمديد حواسه . وناهيك بالأمور التي يفرض وجودها فرضاً ولا يعرف ما هي ، وذلك تسهيلاً لمعيشته وتصريف شؤونه في دنياه . فهو يفرض وجود الأثير ولا يعرف ما هو الأثير . ويفرض وجود الزمان ولا يدري ما هو الزمان . ويفرض وجود النقطة ولا يعرف ما هي النقطة . ومن النقطة هذه تتكوّن خطوطه ومقاييس أبعاده ، وعليها تقوم هندساته وميكانيكياته .

في مثل هذا العالم الشاسع المليء بالأحاجي والمغلف بالأسرار يعيش هذا الكائن القزم الذي ندعوه إنساناً . ولكنّه ، إن يكن قزماً بجسده ، فهو عملاق وأيّ عملاق بفكره وخياله وإرادته ووجدانه . وهو إن لاصق التراب برجليه ففكره يرتاد المجرّات ، وروحه في كلّ مكان وزمان . وكائن ذلك شأنه ، وذلك مقامه في الكون ، ليس من السهل أن تعبر عن كلّ حاجاته ، وكلّ ميوله ونزعاته ، وكلّ متاعبه ومشكلاته في مجلّد أو في مجلّدات . ومن هنا هذا الفيض الهائل من المؤلّفات تقذفها المطابع بمئات الألوف في كلّ عام . ومن هنا تعدّد الأساليب البيانيّة وكثرة المذاهب الأدبيّة .

وإنّه لمن الخير أن تتعدّد الأساليب البيانيّة فيختار كلّ أديب ذلك الأسلوب الذي يوائم ذوقه وميوله وطبيعته .

كأن ينظم الواحد الشعر ، ويؤلّف الآخر القصّة والرواية ، ويصنّف الثالث المسرحيات ، ويستقلّ الرابع بالنقد ، ويجمع الخامس ما بين هذه كلّها . ومن الخير أن تكثر المذاهب الأدبيّة ما بين رومانطيقي وواقعي ورمزي حتى وتكعيبي وتأثري وسريالي . ومن الخير أن يكون هذا الفيض من المؤلفات الأدبيّة ما بين غثها وسمينها ، وتافهها وجليلها . ففي ذلك كلّه أنصع الدليل على حيويّة الإنسان ورحابة كيانه ، وبالتالي على حيويّة الأدب ورحابة صدره . أليست الأرض تتسع للأرزة والقطربة ، وللزنبقة والعليقة ، وللغزال والجعل ، وللذئب والحمل ؟ أليس يتسع الفضاء للنسر والخفاش ، وللكناري والبومة ، وللبازي والبرغشة ، وللورقاء والغراب ؟ أليس يتسع البحر للحوت والمحارة ، وللؤلؤة والإسفنجة ، وللدارعة والزورق ، ولركام الجليد والصدفة ؟ والإنس أرحب بما لا يقاس من الأرض والبحر والفضاء . فهو بغير حدود . فأحرِ بالأدب الذي ما وُجد إلاّ للتعبير عن الإنسان أن يكون هو كذلك بغير حدود .

إلاّ أنّ معظم الكتّاب — ويا للأسف — ليست لهم رحابة الأدب ورحابة الكيان الإنساني . بل تكاد تكون صدورهم أضيق من سمّ الخياط . فمنهم من ليس يبصر من الإنسان إلاّ بطنه . ولذلك يقصر همّه على البطن وحاجته إلى الرغيف .

ثمّ يضيق ذرعاً بكلّ أديب يبيح لقلمه أن يحدّث عن جوع غير جوع البطن إلى الرغيف . فكأنّ على الكتّاب جميعاً أن ينقلبوا إلى حرّاثين وطهاة وخبّازين ليوفروا للناس ما يحشون به بطونهم . ألا ليته كان للإنسان أن يحيا بالخبز وحده . وليت شبع البطن كان الطريق السويّ إلى شبع القلب والفكر والروح . إذن لما كان أقصره وأسهله طريقاً إلى الطمأنينة والراحة والسعادة ! إلاّ أن الأرض تئنّ لكثرة ما فيها من شباع جافتهم الطمأنينة والراحة والسعادة وحالفهم الخوف والعناء والشقاء . وقد عرفتُ أناساً فرغت بطونهم من لذائذ العيش وامتلأت قلوبهم بخيرات الحبّ والجمال والمعرفة والحرية .

ألعلّني أبارك الجوع إلى الرغيف؟ معاذ الله! فهو الكفر الذي ما بعده كفر ، وهي الجريمة التي ما فوقها جريمة أن يكون في الأرض إنسان واحد يطلب القوت فلا يحصل عليه لأنّ سواه قد استأثر منه بما يزيد عن حاجته . فجميع خيرات الأرض لجميع أبناء الأرض – لا لبلد دون بلد ، ولا لجماعة دون جماعة . وهي الخيانة بعينها أن يتعامى الأدب عن هذه الجريمة . وهي الجبانة بعينها أن لا يقول للمجرمين : إنّكم مجرمون ! ولكنّها الخيانة الأكبر والجبانة الأفظع أن يصرف الأدب كلّ همّه إلى جوع البطن فلا يلقي بالاً إلى جوع القلب والفكر والروح .

ومن الأدباء من يحسب الإنسان كلّ الإنسان في ظهره لا غير . فمهمّة الأدب عند هؤلاء هي التبسط إلى أقصى حدود الصراحة — والوقاحة — في وصف ما يكون بين الذكر والأنثى من علائق لا حصر لألوانها وأشكالها ، ولا لظروف الزمان والمكان التي تتكوّن ثمّ تمتدّ أو تتقلّص فيها . فهم لا يشبعون من التحدّث عن الشهوة الجنسيّة . إذا نظموا شعراً فشعرهم خدود ونهود ، وثغور ونحور ، ولوعة ونجوى ، ومتعة وشكوى ، وقلب مكلوم ، ودم محموم. وإذا ألّفوا قصّة أو رواية فسداها ولحمتها التجاذب والتدافع بين الجنسين وما يرافق ذلك من وصل وصدّ ، وأمانة وخيانة ، وزواج وطلاق ، ولذّة وألم وغيرها وغيرها من الأمور التي لا يجهلها رجل ولا تجهلها امرأة .

ليس من ينكر ما للعاطفة الجنسيّة من بالغ الأثر في حياة الإنسان . ولكنّ من ورائها غاية إذا نحن أدركناها بدت كلّ لذّة بهيميّة تجاهها قذارة ودعارة . فالإنسان ما انشطر إلى اثنين فكان ذكراً وأنثى إلاّ ليقطع مرحلة الثنائيّة — مرحلة الخير والشرّ — فيعرف نفسه ويعود فيتوحّد في الإنسان الكامل الذي ليس ذكراً ولا أنثى . ومن ثمّ ففي الجسم البشري أجهزة لا تقلّ في أهميتها عن جهاز التناسل . كجهاز الهضم مثلاً . وجهاز التنفّس وغيرهما . فإذا جاز لدعاة الأدب الجنسي أن

يجعلوا من الأدب معرضاً لكلّ نبضة من نبضات العاطفة الجنسيّة فعلامَ لا يجوز لغيرهم أن يجعلوا من الأدب معرضاً لكلّ حركة من حركات الهضم ؟ وهكذا ينتهي الأدب إلى بيت الخلاء !

وهنالك الذين يودّون أن يقصروا همّ الأدب على الإنسان من حيث هو لولب كبير أو صغير في جهاز هائل هو الدولة . أو من حيث هو مواطن في هذه البقعة أو تلك من بقاع الأرض. أو من حيث هو مستخدِم أو مستخدَم ، ومنتج أو مستهلك ، ومستعمِر أو مستعمَر . فهو إذ ذاك إمّا حاكم أو محكوم ، وظالم أو مظلوم ، وحارم أو محروم . ثمّ يقولون لك ان مهمّة الأدب هي إقامة العدل ما بين الحاكم والمحكوم ، والمستخدِم والمستخدَم ، والمنتج والمستهلك ، ونصرة المستعمَر على المستعمِر ، والمظلوم على الظالم ، والمحروم على الحارم . فالعدل ملح الأرض ، والحرية لبّ الحياة . ويا ليت هؤلاء يسألون أنفسهم : ما هو العدل ؟ وما هي الحرية ؟ وهل في استطاعتهم أن يعدلوا إذا ألقيت إليهم مقاليد الحكم ، وأن يعلموا غيرهم العدل ؟ وهل هم حقّاً أحرار ليهدوا الآخرين إلى الحرية ؟ إذن لأدركوا أن العدل ليس في استبدال قانون بقانون . وان الحرية ليست في تحطيم حكم وتركيز حكم . بل في بناء قلب الإنسان وفكره ووجدانه وإرادته بناءً لا مجال

فيه للظلم والاستبداد والاستعباد . فالمجتمع الصالح لا يقوم إلاّ بأفراد صالحين . مثلما لا يقوم البناء الجميل إلاّ بحجارة جميلة . والعدل والحرية لا ينبعان من القانون ، بل من القلب والفكر اللذين هما مصدر كلّ خير وشرّ . فمن شاء أن يبني للإنسان عالماً يسوده العدل وتظلّله الحرية عليه أن يبنيه أوّلاً وآخراً في قلب الإنسان وفكره .

قلت إنّ مهمّة الأدب هي التعبير عن الإنسان وكلّ حاجاته وحالاته تعبيراً جميلاً ، صادقاً من شأنه أن يساعد الإنسان على تفهّم نفسه وتفهم الغاية من وجوده ، وأن يمهد له الطريق إلى غايته . أمّا الحاجات والحالات — وهي بغير عدّ — فقد نوّهت ببعضها لأحذّر دعاة الأدب الموجّه من إقامة حدود للأدب ومن حصره في هذه الحاجة أو تلك الحالة . فحدود الأدب هي حدود الطاقة البشرية على التفتّح والنموّ والانطلاق إلى ما لا نهاية . وإذن فما من حاجة أو حالة تستطيع أن تستوعب كلّ طاقة الأدب . وما من حاجة أو حالة إلاّ تستمدّ أهميتها ممّا تقدّمه إلى الإنسان من العون على بلوغ غايته من وجوده . فالحاجة إلى الرغيف ، مثلاً ، لا قيمة لها في ذاتها . ولكنها تصبح ذات قيمة بقدر ما تساعد الإنسان على سدّ جوعه إلى ما هو أثمن وأبقى من الرغيف بما لا يقاس . وأعني العدل والخير والجمال والمحبّة والمعرفة والحريّة التي

لولاها ، ولولا الجوع والعطش إليها ، لما كان للحياة البشريّة من قيمة أو معنى أو غاية .

وأمّا غاية الإنسان من وجوده فلست أجهل أن الناس ما اتّفقوا عليها يوماً من الأيّام – وعلى الأخصّ في هذه الأيّام التي تشعّبت مذاهبها وفلسفاتها إلى حدّ بعيد من البلبلة والفوضى . وأنا لن أذهب بكم بعيداً فأبسط لكم عقيدتي في الإنسان ومصدره ومآبه ، ومعنى الولادة والموت ، والخير والشرّ . وحسبي أن ألتفت وإياكم إلى ما في قلب الإنسان من أشواق لا تنطفىء إلى المعرفة التي لا يخفاها شيء ممّا في السماء وعلى الأرض ، وإلى الحرية التي لا يحدّها أيّ سلطان ، ولا يحصرها زمان أو مكان . ولأنّني أعرف عناد الإنسان في ماضيه ، وثباته في صراعه مع المجهول ، ودهاءه في التغلّب على العقبات التي تحول دونه ودون تحقيق أشواقه، فأنا واثق كلّ الثقة من أنّه سيبلغ كلّ أهدافه في النهاية – وأهمّها المعرفة القصوى ، والحرية التي لا تُحَدّ ، والحياة التي لا يغتالها موت . ولولا ذلك لما كان عندي لأيّ عمل من أعمال الناس أيّ قيمة ، ولما نظرت إلى الأدب نظري إلى أهم وأنبل وأقدس جهد من الجهود البشريّة على الإطلاق . فهو البحر وغيره الروافد .

وإن أسفت لشيء فلأنّ الكثير من الأدباء يمارس الأدب

كما لو كان حرفة لا أكثر . فهو عندهم لتسلية القارىء وصرفه عن نفسه ، ولكسب الثروة والشهرة ، وللمباهاة بعبارة بارعة ، أو قصيدة « عامرة » ، أو رواية رائجة . أو هو عندهم معرض لمفردات اللغة وقواعدها ، وميدان تتبارى فيه ذاكرة وذاكرة ، وعارضة وعارضة ، بدلاً من أن يكون ولادة وعبادة . فالأديب في نظري ، يجب أن يولد ولادة ، بل ولادات جديدة في أدبه ، وأن تكون له في كلّ ولادة عبادة – عبادة الحياة المقدسة التي تمشي به من غيبوبة الجهل إلى يقظة المعرفة ، ومن ظلمة العبودية إلى سناء الحرية . ومتى كان للأديب في أدبه ولادة وعبادة فلا فرق عندي إذا هو وقف أدبه على الدفاع عن حقوق العطاش والجياع ، أو حقوق المنسيين والمهانين ، أو حقوق المظلومين والمستعبَدين . أو إذا هو انصرف إلى نواح أخرى من نواحي الحياة البشرية . فالمهم أن تتوهّج كلماته بحرارة الواثق من صدق ما يقول كيما تتوهج بها قلوب قرائه وأفكارهم . والمهم أن لا يضيق صدره بالأدباء الذين وقفوا أدبهم على بناء قلب الإنسان وفكره ووجدانه وإرادته كيما يبصر هدفه ويسلك الطريق السويّ إليه .

وإنّه لمن الخير للأدب أن تتعدّد مناهجه ووظائفه . فلا يعمل الكتّاب كلّهم عملاً واحداً . فبناء الحياة الذي هو شغل الأدب لا يختلف من هذا القبيل عن أيّ بناء . وأيّ بناء

لا يحتاج في تشييده إلى مهندسين وبنّائين ، وإلى من يقطع الحجارة ويهندمها ، وإلى من يحفر الأسس ، وإلى من يجبل الطين ، وإلى من يناول الحجارة الصغيرة لتسند الكبيرة ؟ ان يكن البناء من حجر وطين في حاجة إلى جيش من العمال ، فكيف ببناء الحياة ؟ فليفهم الأدباء ذلك وليفهموا فوق ذلك أن كلّ عمل في بناء الحياة هو عمل شريف . فلا سبيل إلى المفاضلة ما بين هذا وذاك . وليفهموا أخيراً أنّه من الإثم أن يُسكرهوا المهندس على جبل الطين ، والبنّاء على طهي الطعام للعاملين .

إنّ في اقتسام العمل لراحة للعمال وضمانة لنجاح العمل . وأنا ما ألححت على هذه الناحية من مهمّة الأدب إلاّ لعلمي بما في هذه الأيّام من تيارات عنيفة ، متضاربة ، تتقاذف الأدب تقاذف الموج لخشبة في عرض اليم . وهذه التيارات ما بين سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وقوميّة وعلميّة وسواها تكاد تنحرف بالأدب عن مهمّته الإنسانيّة السامية إلى حيث يغدو بوقاً لهذا المذهب أو لذلك ، وقذيفة جهنمية ضدّ كلّ مذهب خالفه أو عاكسه . حتّى لنستطيع القول إن الأدب مصاب اليوم بشيء من ضيق الصدر والنفس . وعلى الأخص في دنيا العرب حيث لم يبلغ الأدب أشدّه بعد .

والأدب في دنيا العرب ما بلغ بعد أشده ، ولن يبلغه حتّى

تكون لنا أمور ثلاثة :

١ — لغة سلسة القياد .

٢ — أمة لا تعاني ، في جملة ما تعاني ، مركّب النقص .

٣ — حريّة الكلمة .

أمّا اللغة فلست أغالي إذا قلت إنّها من أوسع لغات الأرض وأغناها بالمفردات والاشتقاق ، وإنّني أحبّها إلى درجة الهيام . فهي في لحمي ودمي . ولكنّها، إلى جانب غناها بأشياء وأشياء، تفتقر اليوم إلى الكثير من الاصطلاحات التي تفرضها حاجات عصر كلّ ما فيه يعدو بسرعة خاطفة . فهي لا تصلح للتمثيل ما دام الفرق شاسعاً ما بين فصيحها وعاميّها . ومن هنا الضعف في المسرح العربي . وهي ان صلحت للقصيدة والمقالة إلى حدّ بعيد فلا تصلح للقصّة والرواية إلاّ بمقدار . وذلك لكثرة ما نستعمله اليوم من أشياء محسوسة وغير محسوسة ما كان لأسلافنا عهد بها . فما وضعوا لها المفردات ولا وضعناها نحن . ناهيك بما في صرفها ونحوها من تعقّد ، وبما في كتابتها وقراءتها من مشقة . وليس يُصلح الخلل أو يخفف من ضرره أن يقول قائل ان عند غيرنا لغات فيها من التعقيد مثل ما في لغتنا . فمثل هذا القول لدليل على مركب النقص فينا . وهل ضيق غيرنا يجعل من ضيقنا فرجاً ؟

لست بجاهل أن حديث اللغة حديث ذو شجون ، وانّه

يثير هواجس ونعرات في أذهان بعض الناس الذين يعبدون الخليقة دون الخالق ، فيحسبون العربيّة أقدس من العرب الذين خلقوها ويعدّونها كاملة وعنوان الكمال . وأنت لو سألت هؤلاء هل يؤمنون بالتطوّر لأجابوك : نعم . ولو سألتهم هل يريدون الكمال للإنسان لأجابوك : نعم . فيا ليت شعري كيف يتطوّر الإنسان ولا تتطوّر لغته ؟ وكيف يبلغ الكمال مَن لغته ناقصة ؟

وأمّا مركّب النقص فشاهده أن أبناء الضاد ما زالوا يستكبرون كلّ ما يأتيهم من الغرب وإن يكن صغيراً — ويستصغرون كلّ ما ينبت في ديارهم وإن يكن كبيراً . إلاّ إذا شهد الغرب بأنّه شيء كبير . فهو إذ ذاك عند العرب كبير وجدّ كبير . وحسبهم اتّكالاً على الغرب أنّهم يتمذهبون بمذاهبه ويأتمون بأئمته . فأنت لا تقرأ لهم مقالاً عن كاتب عربي حتّى تقرأ عشرين عن كاتب افرنجي . وأنت لا تسمع بمذهب أدبي خلقه ثمّ تزعّمه كاتب عربي . ولولا مركب النقص فينا لآن لنا أن نستقلّ عن الغرب وأن نخلق أدباً بينه وبين ماضينا وحاضرنا ، وبين سمائنا وأرضنا ، وبين ما تعمر به قلوبنا وأفكارنا تجانس وتقارب وتجاوب .

وأمّا حرية الكلمة فالذي عندنا منها لشيء جدّ يسير . وهذا اليسير يبتدىء وينتهي بحرية نقد الحكام والأوضاع

السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة . بل إنّ هذا اليسير يكاد يكون معدوماً في أكثر البلدان العربيّة . ولكن الحريّة التي أعنيها هي حرية التعبير عن كلّ ما يجول في خاطر الكاتب ، حتى وإن عارض التقاليد التي نقدّسها والعقائد التي ندين بها . وحريّة التعبير هذه هي في شرعي أقدس من أي تقليد وأيّ عقيدة . وهي التي تخلق التقاليد والعقائد . أفليس من الغرابة — بل من الفظاعة — بمكان أن ترتد عليها مخاليقها فتخنقها ؟

إنّ الذين ناضلوا والذين استشهدوا في سبيل حرية الفكر والكلمة من فلاسفة وعلماء ورسل وأنبياء لجيش جرّار . ولولاهم لكانت البشريّة في ظلمات من عيشها دامسات . فتقييد حرية الفكر والكلمة في ما قاله وفعله أولئك الشهداء والمناضلون والأنبياء والمرسلون لهو الكفر بهم وبكلّ ما قالوه وفعلوه .

وماذا الذي تخشاه أيّ عقيدة من حرية الكلمة ؟ إن تكن تلك العقيدة من مصدر فوق الإنسان فلن تقوى عليها كلمة الإنسان . وإن تكن من الإنسان فللإنسان الحقّ أن يتناولها بالشكّ والتجريح ، والدرس والتحليل ليكيّفها بحسب ما يقتضيه تطوّره من حال إلى حال . ولولا التطوّر لكان الإنسان جماداً ، ولما كان في حاجة إلى أيّ عقيدة . ومن ثمّ فما نفعه من فكره ووجدانه وإرادته وخياله — وكلّها هبات ربّانيّة —

إذا هو لم يستعملها ليفهم بها نفسه ويفهم ربّه ؟ أليس الكفر بالعطيّة كفراً بالمعطي كذلك ؟

إنّ الحرية — حرية الكلمة — ضرورة للفكر والقلب ، وبالتالي للأدب ، كما هو الهواء والماء والغذاء لكلّ جسم حيّ . فحيثما كانت الحرية سجينة المخاوف والتقاليد والعقائد كان الأدب كذلك سجين المخاوف والتقاليد والعقائد ، ففسد الهواء الذي يتنشقه ، والماء الذي يشربه ، والغذاء الذي يتناوله . فكان هزيلاً ومائعاً وجباناً . وإنّه لمن الإثم الذي لا يُغتفر أن نقسو على الأدب إلى ذلك الحدّ جاهلين أنّنا بذلك نقسو على الإنسان الذي ما وُجد الأدب إلاّ ليكون عوناً له على فهم نفسه وفهم الأكوان التي حواليه . وإلاّ ليمهّد له سبيله إلى المعرفة التي لا يفوتها علم شيء ، والحريّة التي لا يقيّدها أيّ سلطان . فالإنسان ما نطق إلاّ ليفتح بالنطق جميع ما أُغلق عليه من أبواب ، ولا استوطن الأرض إلاّ ليقفز منها إلى السماء .

رسالة الشرق المتجدّد

ليس عليك أن تكون نبيّاً لتقرأ ما تخطّه إصبع القدر على جبين هذه الحقبة من تاريخ البشرية . فالمدنيّة الغربيّة المسيطرة على العالم منذ أجيال وأجيال تتخبّط اليوم في شباكٍ من المشكلات المعقدة التي خلقتها من نفسها لنفسها ، وتفتّش عن باب للخلاص فلا تهتدي إليه . ذلك لأنّها صرفت جلّ اهتمامها إلى العقل وترويضه وتنظيمه . فكانت هذه الطفرة الباهرة في دنيا العلوم النظريّة والتطبيقيّة ، وكان هذا الفيض العارم من الاختراعات العجيبة والاكتشافات المدهشة . أما القلب الذي تصطرع فيه سود الشهوات وبيضها فما أحسنت ترويضه وتنظيمه . فكان هذا الطغيان الذي نشهده اليوم من أنانية وحقد وبعض وتنابذ وجشع ومكر ودهاء وغيرها من الشهوات السود . ومن شأن هذه الشهوات ، إذا استفحل أمرها ، أن تعبث بنتاج العقل فتجعله أداة تخريب بدل التعمير ، ومصدر شقاء لا هناء ، ونقطة انزلاق لا انطلاق . وها هي تقوّض اليوم أركان هذه المدنيّة مثلما قوّضت أركان ما سبقها من مدنيات .

وإني لأسأل : إذا انهارت المدنيّة الحاضرة – ولسوف تنهار – فمَنذا الذي سيرفع للبشريّة مشعل الهداية ، ويقيلها من عثرتها ، ثمّ يقودها في الطريق السويّ إلى الهدف السنيّ المعَدّ لها منذ الأزل ؟

إنّ للأزمنة دلائلها . ودلائل زمانٍ نحن فيه لا تترك في ذهني أقلّ الشكّ في أنّ الشرق مدعوّ للقيام بهذه المهمّة الخطيرة من جديد . فهو الذي انبرى لها مرّة بعد مرّة منذ فجر التاريخ ، فما أفلح الإفلاح كلّه ، ولا أخفق الإخفاق كلّه . وما الديانات التي نشرها في الأرض ، على اختلاف أسمائها ومسالكها ، سوى مناهج ترمي إلى ترويض القلب عن طريق الخير والشرّ على تذليل شهواته السود لشهواته البيض كيما يتاح له أن يبصر طريقه إلى الهدف الأبعد والأسمى . ألا وهو المعرفة الكاملة والقدرة الكاملة والحرية الكاملة التي من شأنها أن تعود بالإنسان إلى مصدره الإلهي فتجعل منه إلهاً .

تلك في خطوطها الواسعة ، هي رسالة كلّ دين من الأديان التي جاء بها الشرق . ولقد حاول الشرق في ما مضى أن يطبّق دينه على دنياه وأن يجعل من الأرض سلّماً يرقى به إلى السماء فما نجح من بنيه غير أفراد . أولئك هم الأنبياء والأولياء والقديسون والمختارون . أمّا الجماهير فقد أجهدتها المحاولة ونهكت قواها . فلاذت بالقشور وأهملت اللباب .

وكان من ذلك أن انشلّت القوى الخلاّقة في أديان الشرق وإذا بها تغدو طقوساً متحجّرة وأداة تفرقة وتنابذ بين الشعوب بدلاً من أن تكون أداة جمع وتعاون .

وهكذا هجع الشرق هجعته الطويلة . وقد سيم في خلالها شتى أنواع الذلّ والهوان على يد أخيه الغرب . ولكنه اليوم ينتفض انتفاضة الجبّار . فينزع عنه مَعلماً تلو معلم من معالم الاستثمار والاستعمار ، ويكشح ظلمات الذلّ والهوان ، ويعمل بنشاط واندفاع على ترميم ما انهار من عزيمته ، واسترداد ما ضاع من حقّه ، وتليين ما تصلّب من شرايينه ، فهو كالنسر يجدّد شبابه ويتطلّع إلى عالم أرحب وأفضل وأجمل من عالم هو فيه .

وما هو العالم الذي نعيش فيه اليوم وكأنّنا نعيش على فوهة بركان ؟ إنّه لعالم انشطر إلى معسكرين مدججين بالسلاح ، وكلاهما يرتقب الفرصة المؤاتية لينقضّ على الآخر فلا يبقي ولا يذر . وليس يعنيهما من الإنسان انّه بذار إلهي معدّ لأن يلبس وشاح الألوهة . ويعنيهما منه أنّه منتج ومستهلك ، ومحكوم وحاكم ، وصاحب عمل أو عامل ، وانّه أبيض أو أسمر أو أسود أو أصفر أو أحمر ، وانّه وطنيّ في هذه البقعة ، وأجنبيّ في كلّ ما عداها من بقاع الأرض . وأخيراً انّه كائن يتزاوج ويتناسل . وبكلمة أخرى إن كلا المعسكرين

لا يبصر من الإنسان غير ظلّه وقشوره . ولذلك فكلّ محاولة يبديها لتوجيهه في هذا الطريق أو ذاك بقصد الوصول به إلى الحريّة والسعادة لمحاولة مصيرها حتماً إلى الفشــل فإلى الكارثة .

ويقيني أنّ الشرق المتجدّد يستطيع أن ينجي العالم من الكارثة إذا هو عرف كيف يتحرّر من ربقة الطقوس المتحجّرة وكيف يستمدّ القوّة والهداية من معلّميه العظام . فرسالته إذ ذاك هي تذكير الناس في كلّ مكان بأن هدفهم واحد وطريقهم إلى الهدف واحد ؛ وان عليهم أن يسلكوا ذلك الطريق متعاونين لا متنابذين ، وسلاحهم الفكر والوجدان والخيال والإرادة لا الظفر والناب ؛ وانّهم متى أدركوا سموّ الهدف الذي إليه يسيرون أصبحت فوارق الجنس واللون واللغة والمذهب عوناً لهم في سيرهم بدلاً من أن تكون عراقيل وحجار عثرة ؛ وان الأرض هي ميراث الكلّ ويجب أن تُستغلّ لخير الكلّ ؛ وانّه لمن أكبر الخير للإنسان أن يحبّ جاره بدلاً من أن يبغضه ؛ وانّ قتل الآخرين ما جلب في يوم من الأيّام الهناء والسعادة للقاتلين — بل على العكس . لقد جلب لهم الوجع فالشقاء فالموت .

ويقيني كذلك أنّ الهند التي نفحت العالم بالحكمة من أصفى منابعها مؤهلة من بعد يقظتها الحديثة لتوجيه العالم ذلك

التوجيه الجديد . أمّا الشعوب العربيّة — وريثة ثلاثٍ من أعظم الديانات وأكثرها انتشاراً في الأرض — فعليها أن تساند الهند في تأدية رسالتها النبيلة . وما المثال الجميل الذي أعطاه غاندي غير مقدمة بارعة لأمثلة كثيرة يستطيع الشرق — والهند على الأخص — تقديمها لهذا العالم الغارق في رغوة الحياة وزبدها إلى ما فوق أذنيه . أمّا الأجيال الحاضرة والأجيال الطالعة في الشرق فعليها أن تطهر أفكارها وقلوبها من ترهات كثيرة التقطتها هنا وهنالك وأن تلقحها من جديد بإيمان الشرق بالإنسان الذي هو صورة الله ، وبهدفه الأبعد والأسنى — ألا وهو معرفة كلّ شيء والقدرة على كلّ شيء ، والبقاء الذي لا يطاله فناء .

إنّ قلوباً وأفكاراً عامرة بمثل ذلك الإيمان لأمنع من أن تنال منها أفظع الأسلحة الجهنميّة منالاً . وإن روح الشرق الذي قهر الزمان لروحٌ لا يُقهر ولا يموت .

عاماً سعيداً

عام جديد !

وأيّ عام ليس بالجديد ؟ أهو العام الذي نطويه الليلة ليعود فينشره الغد ؟ أم هو أوّل عام طواه آدم وحوّاء منذ أن كُوِّرت السماء وكُوِّنت الأرض ؟ وها هي الأعوام التي تلته حتى اليوم والتي ستتلوه فيما بعد مثقلة بأسراره وبذاره . وهل نحن نطوي الأعوام إلاّ كما يطوي الولد الصغير صفحات كتاب كثرت رسومه ورموزه ؟ فهو لا يعنيه من الكتاب أكثر من أن يسلي ناظريه بما فيه من غريب الصور . أما ما جاء من شرح لتلك الصور فلا يفقه منه حرفاً واحداً ، وجلّ همّه أن يتنقّل من صفحة إلى أخرى مدفوعاً بالشوق إلى مناظر جديدة وإحساسات جديدة ، وغير عالم أنّه ما لم يفهم الصفحة التي أمامه لن يفهم التي بعدها . فهو وإن بلغ الأخيرة ما تعدى في الواقع الصفحة الأولى . فهي جديدة وإن ظنّها قديمة .

يدور الزمان على ذاته . فهو كالحلقة كلّ نقطة منها تصلح أن تكون بداية ونهاية معاً . وإذ ذاك فالآتي يغدو ماضياً والماضي يصبح مستقبلاً . وإذ ذاك فكلّ قديم جديد . وكلّ

جديد قديم . ونحن لا نودع اليوم عاماً إلاّ لنستقبله غداً . ولا نستقبل عاماً إلاّ وقد ودعناه أمس .

ويا ليتنا إذ نودع عاماً نعرف ماذا نودع . وإذ نستقبل عاماً نعرف ماذا نستقبل . ففي كلّ لحظة من وجودنا يبتدىء عام وينتهي عام . وفي كلّ لحظة يتلاقى الأزل والأبد . وما من عام يمرّ بنا إلاّ يحمل إلينا كلّ ما نشتاقه من قوّة ومعرفة وخير وجمال وحقّ وسلام . مثلما لا يمرّ عام إلاّ يحمل إلينا كلّ ما بذرناه في تربة سلفه من ضعف وجهل وشرّ وقباحة وبطلان وخصام . لذلك تتشابه أعوامنا تشابه الليل بالليل والنهار بالنهار . فيسر وعسر ، وعدل وعسف ، وسرور وحزن ، وسلم وحرب ، وولادة وموت . ولذلك نستعجل الزمان لعلّ الغد يأتينا بالخير دون الشرّ ، ولعلّ العام الجديد يحمل إلينا الحياة دون الموت . وفي ذلك من التمويه وخداع النفس ما فيه.إذ ليس من المعقول أن يَجني السّلمَ مَن يزرع الحرب، والحُبَّ مَن يبذر البغض ، والسعادةَ من لا يوزّع إلاّ الشقاء ، والحياةَ من لا يعيش إلاّ بالموت .

جميل أن يتمنى الناس بعضهم لبعض في رأس كلّ سنة « عاماً سعيداً » . ولكن التمني لا نفع منه إلاّ أن نعمل بصبر وصلابة وإيمان على الفوز بما نتمناه . والأجمل من تمنينا الخير والسعادة لأنفسنا ولجارنا أن نساعد أنفسنا وجارنا على التطهر

من كلّ ما من شأنه أن يقصي عنّا وعنه الخير وأن يفسد السعادة علينا وعليه . أمّا الأمور التي تقصي عنّا الخير وتفسد علينا السعادة فما أظنّ عاقلين يختلفان فيها . وهل من يجهل أن مغبّة الطمع التخمة ، وأن عاقبة البغض الاحتراق بنار البغض ، وأن المين تهلكة للروح ، وأن الظلم موطنه الظلام ، وأن الفسق مقبرة الفاسقين ، وأن حبّ السلطان سجن للسلاطين ، وأن الحرب لا تنسل إلاّ حروباً ؟ وعلى العكس من هذه كلها هي القناعة بحاجة النفس والجسد ، والمحبّة ، والصدق ، والعدل ، والطهارة ، وكره التسلّط على النّاس ، وتحكيم العقل مكان القوة .

فيا ليت الناس إذ يتبادلون التهاني الجوفاء في رأس كلّ عام يتبادلون معها الاعتراف بأن لكلّ منهم نصيباً في ما أصاب الآخرين من شقاء وقسطاً في ما تذوقوه من هناء . ثمّ يا ليتهم يتبادلون العهود الصادقة على الإقلاع عن كلّ ما يجلب لهم الشقاء ، والإكثار من كلّ ما يعود عليهم بالهناء .

إن عيد رأس السنة يجب أن يكون يوم تنقية وتصفية حساب لا يوم هرج ومرج وعربدة وبطالة . إذ ليس في إتمام دورة من دورات الأرض حول الشمس ما يدعو إلى الهرج والمرج والبطالة والعربدة . ولكن في كلّ نبضة من نبضات الأرض وغيرها من الأفلاك ، وفي كلّ نبضة من نبضات

قلوبنا ما يدعو إلى الدهشة والتأمّل والذهول عن النفس الطمّاعة بغير حدّ في الملذّات التي تلازمها الآلام ملازمة الظلّ للنور. ولو أن الناس تعلّموا كيف تكون تنقية النفس وتصفية الحساب لما ردّوا ألماً واحداً من آلامهم لسبب أو أسباب خارجة عنهم. إلاّ أنّهم ما تعلّموا شيئاً من ذلك بعد. فما نزلت بهم نازلة وقالوا إنّهم جلبوها على أنفسهم بنيات نووها وأفكار فكروها وأعمال عملوها. بل تراهم أبداً يلومون كلّ ما في السماء وعلى الأرض. أمّا أنفسهم فما يلومون. واللوم عليهم أوّلاً وآخراً. فالأمر الذي لا يقبل الشكّ في عقيدتي هو أن بين النيات والأفكار والأعمال وبين ما ينتج عنها من صروف وأحداث تجاذباً وتدافعاً كما بين الأجرام في أفلاكها، والمعادن في مخابئها، والطير في أجوائها. فما نزلت نازلة بإنسان إلاّ لأنّه جذبها إليه بأشياء فكّرها أو اشتهاها أو عملها. ولا افترّت لإنسان ساعة بشر وسعادة إلاّ لأنّه فعل أو فكّر أو اشتهى ما من شأنه أن يجذب إليه ساعة بشر وسعادة.

فعلينا قبل أن نتمنى لأنفسنا ولغيرنا «عاماً سعيداً» أن نحاسب أنفسنا عن كلّ ما جلب علينا الشقاء في العام الذي انصرم ومن ثمّ أن ننقي منه قلوبنا كيما تصبح مساكنَ لائقةً بالسعادة. وقلب واحد تسكنه السعادة في الأرض لكفيل لكلّ القلوب بأن السعادة لا تستنكف من اختيارها مسكناً لها

إذا هي وجدتها لائقة بها . وإنسان واحد اكتشف الطريق إلى السعادة لدليل صادق لكلّ الناس إلى قلب السعادة .

تمنيت ، وقد اختلط حابل الناس بنابلهم في هذه الأيّام ، فتقاربوا حيث كانوا متباعدين ، وتباعدوا حيث كانوا متقاربين ، ثمّ تفاهموا في أمور وتخالفوا في أمور — تمنيت لو أنّهم يتواضعون على يوم واحد تتخذه سائر الشعوب والملل عيداً لرأس السنة . فليس ادعى إلى التفرقة من عيد كعيد رأس السنة تعيّده شعوب الأرض في أيّام مختلفة . وليس ادعى إلى التقريب بين الشعوب من عيد كهذا العيد يعيّده الناس في يوم واحد أينما كانوا ولأيّما دينٍ انتسبوا .

لئن عزّ علينا أن نربط الناس برباط واحد من الدين والموطن واللغة ليشعروا أنّهم عائلة واحدة فلا أقل من أن نربطهم بعيد واحد في السنة يعيّدونه معاً لغاية واحدة . لعلّهم يشعرون أنّهم جماعة واحدة يجرفهم تيّار واحد إلى غاية واحدة ونهاية واحدة. أمّا التيار فهو الزمان . وأمّا الغاية والنهاية فالقدرة التي منها وإليها الإنسان ، وفي قبضتها الزمان والمكان . وإذ ذاك فما أجمل أن تتجاوب الأرض والسماء ولو في صبيحة يوم واحد من أيّام السنة بدعاء الناس بعضهم لبعض :

عاماً سعيداً !

الشرفُ الرفيع

من أبيات المتنبي الّتي يردّدها الناس بمنتهى الإعجاب بيته المشهور :

لا يسلمُ الشّرَفُ الرّفيعُ من الأذى
حتّى يُراقَ على جوانبِهِ الدّمُ

وإني لأسأل المعجبين بهذا البيت عن « الشرف الرفيع » ما هو ؟

ومن أين يأتيه الأذى ؟

وكيف يسلم من الأذى إذا أريق الدم « على جوانبه » ؟

ودم مَن ذلك الذي يجب أن يراق : أهو دم الذي آذى الشرف ؟ أم دم الذي أوذي في شرفه ؟ أم دم الاثنين معاً ؟

وهل هنالك أنواع من الشرف : فشرفٌ رفيع . وشرف وضيع . وشرف لا هو بالرفيع ولا بالوضيع ، ولكنّه بين بين ؟

وهل الشرف الرفيع هو وحده الذي لا تُغسل الإساءة إليه بغير الدم ؟ أمّا ما دونه من أنواع الشرف فيكفي لغسله

لطمة أو شتمة ، أو قليل من الوحل أو البصاق ؟

ما أظنّ أنّ في اللغة — في أيّة لغة — كلمةً شريفة يمتهنها الناس امتهانهم لكلمة « الشرف » . فهم أبداً يشرّفون ويتشرّفون في كلّ ما يفعلون ويقولون . حتّى كأنّما الشرف لقاح عالق بثيابهم ينثرونه يميناً وشمالاً ، أو نفَس يقذفونه من صدورهم ، أو نظرة يلقونها من زوايا عيونهم ، أو لمسة خفيفة من أناملهم ، أو كلمة سخيفة تنزلق عن ألسنتهم .

يتعارف اثنان فيقول واحدهما للآخر : تشرّفنا . ويقدّم رجل إلى رجل لفافة فيقول له : شرّف ! ويزور قوم قوماً فيقول أهل البيت للزائرين عند انصرافهم : شرّفتم ! فيجيبهم الزائرون : تشرّفنا ! والطريف الطريف أن تسمع الناس يقسمون بشرفهم كما لو كان ذلك الشرف أطهر من الثلج ، وأسطع من نور الشمس ، وأعزّ على قلوبهم من قلوبهم ، وأبعد أثراً في حياتهم من حياتهم . فكأنّه والعزّة الإلهيّة في مرتبة واحدة من حيث القيمة والأهميّة .

« بشرفي ! » — تسمعها من الكبار والصغار ، والعقلاء والجهلاء ، والأغنياء والفقراء كلّما اشتدّت بهم الرغبة في اقناع غيرهم بصدق ما يدّعون . يقولها اللصّ للصّ إذا اختلفا على اقتسام غنيمة . وتقولها المومس للمومس إذا تعاتبتا في أمر من الأمور . ويقولها الحشاش للحشاش ، والسكّير للسكّير ،

والبائع للشاري ، والحوذي للراكب ، والنائب للناخب ، وصبيّ يلعب بالأكر لرفيق له في اللعب . يقولها الكلّ بغير استثناء ، وكثيراً ما يكون قائلها أكذب مَن كذب ، وأسرق مَن سرق ، وأفسق مَن فسق . وقد يتفق أن يكون جلاّداً في جبّة قاضٍ ، وقاطع طرق في منصب وزير ، وشيطاناً يعتمر قلنسوة أو عمامة !

وما قولك بالذين يسكرون حتى الجنون إذا هم « تشرّفوا » بالمثول لدى ذي مقام رفيع ، أو « بلثم الأنامل الطاهرة » لملك من الملوك أو سلطان من السلاطين ؟ أو إذا هم نالوا لقباً أو وساماً ؟ أو إذا عزّاهم « كبير » بمفقود أو هنأهم « عظيم » بمولود ؟

ثمّ ما قولك بالذين شرفهم لا يستقرّ على حال ، بل يتبدّل بتبدّل الزمان والمكان ، فكأنّه « يلبس لكلّ حالة لبوسها » ؟ فشرفهم في النهار غير شرفهم في الليل ، وفي السوق غيره في البيت ، وفي المعبد غيره في المقهى ، ومع مَن هم فوقهم غير ما هو مع الذين دونهم . وشرفهم إذا باعوا غير شرفهم إذا اشتروا ، وإذا اغتنوا غير شرفهم إذا افتقروا .

لعمري إن ما يتداوله الناس باسم الشرف لشرف زائف بل هو نقيض الشرف على خطّ مستقيم . وذلك لأنّه شرف

يخلعه الناس على الناس وينزعه الناس عن الناس . والناس كما تعلم ، يمارون ويداجون ، ويتملّقون ويتزلّفون ، ويتحاسدون ويتباغضون ، وعلى مودة أو عداوة لا يثبتون . فلا عجب أن ينزعوا اليوم عن إنسان شرفاً خلعوه عليه أمس ، أو أن يخلعوا في هذه الساعة على إنسان شرفاً نزعوه عنه قبل ساعة . بل العجب كلّ العجب في أن يتمسّك واحدهم بما خلعوه عليه من « شرف » فيمضي يباهي به ، ويستميت في الدفاع عنه حتّى ضدّ الذين خلعوه عليه .

والأعجب من ذلك أن ترى الناس قد خلعوا على كلّ مهنة أو حرفة شرفاً . فشرف للقضاء ، وشرف للطبّ ، وشرف للمحاماة ، وشرف للبحرية ، وشرف للجندية ، وشرف للملاكمة والمصارعة ، وشرف للتعليم ، إلى آخر ما هنالك من مهن وحرف . وكلّ ذي مهنة يمسي مطالباً بشرفين شرفه الخاص وشرف مهنته . وللناس في الدفاع عن شرفهم من غريب الأساليب وعجيبها ما يضحك ويبكي . فالذي يخونه زنده لا تخونه عصاه . والذي تخونه عصاه لا يخونه لسانه . والذي لا يكفيه لسانه يستجير بالقضاء . والذي لا يشفي القضاء غليله يحتكم إلى المدية أو المسدس . حتّى إذا ما طمر خصمه بالأقذار ، أو أشبعه لكماً وضرباً ، أو أثخنه جراحاً ، أو أكرهه بواسطة القاضي على دفع ترضية له عن شرفه المثلوم ،

عاد إلى بيته وذويه مرفوع الرأس ، ضاحك العين ، منبسط الأسارير وكأنّه يقول : « أرأيتم كيف استعدت شرفي سليماً من الأذى ، طاهراً من الأقذار ؟ »

إن شرفاً يعطيكه لسان وينتزعه منك لسان لشرفٌ أقلّ ما يقال فيه إنّه ألعوبة الأقدار ، وذرّة من هباء في الهواء . وشرف ذلك شأنه ليس حقيقاً بأن تُبذل في سبيله كلمة أو حركة . فكيف بأنهار الدماء تراق « على جوانبه » ؟

ما عرفت رجلاً صادقاً جعله كلام الناس كذوباً ولا كذوباً استطاعت ألسنة الناس أن تجعل منه رجلاً صادقاً . فما أسخف الصادق يمتشق سيفاً في وجه من اتّهمه بالكذب ، أو يلجأ إلى القضاء ليبرهن للناس أنّه صادق ! وما أحمق الكذوب يحاول أن يثبت بالشتائم ، وبالوعيد والتهديد ، أنّه رجل صادق ! فالزمان للاثنين بالمرصاد . وهو الشاهد الوحيد الذي لا تخدعه دعاية ، ولا يصرفه عن الحقّ أيّ تهويل . ثمّ ما أجهل الناس يتقاتلون ويتباغضون ويتناحرون في سبيل ما يتوهمونه شرفاً وما هو من الشرف بخمر أو بخلّ . وحسبه زيفاً أن يكون هبةً من الناس إلى الناس . إذ كيف للناس ، وهم حيث هم من الضعف والجهل وتضعضع الأفكار والنيات ، وتضارب الآراء والشهوات ، أن يشرّف واحدهم الآخر ؟

إنّما يشرّف الإنسان من كان فوق الإنسان . أمّا الإنسان

فليس له أن يشرّف أخاه الإنسان . وكيف للإنسان الذي ما صفا بعد من أدران شهواته الأرضيّة أن يشرّف إنساناً مثله ؟ كيف للذبالة التي ليست نوراً صافياً أن تشرّف ذبالة أخرى إذا هي أعطتها من نورها — ونورها ليس منها بل من الشمس ؟ إنّما تشرّف الشمس الذبالة إذ تعطيها من نورها . فشرف الذبالة ليس في أنّها ذبالة ، بل في أنّها تحمل قسطاً ، مهما يكن ضئيلاً ، من نور الشمس تستطيع أن تبدّد به بعضاً من الظلمة التي حواليها .

أنقول إذن إنّ الشرف اسم لغير مسمّى ؟

لا ، لعمري . بل هنالك الشرف الرفيع الذي لا يعلوه شرف والذي لا يمتّ بصلة إلى محتدٍ أو ثروةٍ أو جاه أو أيّ منصب مدني أو عسكري أو ديني . وهو واحد لا يتجزّأ ولا يتغيّر ولا يتبدّل . ولأنّه شرف لا يخلعه إنسان على إنسان ، فلا يستطيع إنسان أن ينتزعه من إنسان . وأعني به شرف الألوهة الذي مهرت به الحياة قلب الإنسان فبات ، عن وعي وعن غير وعي ، يسعى بكلّ ما أوتيه من قوى لا تحدّ للتمتّع به كاملاً ، صافياً ، أبديّاً .

ذلك هو الشرف الرفيع الذي يحقّ للإنسان أن يعتزّ به ، وأن يدافع عنه ، وأن يصونه من كلّ أذى . والاعتزاز به لا يكون بالتبجّح والاعتداد بالنفس :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفُني
والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

بل بإنكار الذات البشريّة الفانية طمعاً بالوصول إلى الذات الإلهيّة التي لا تعرف الفناء . والدفاع عنه لا يكون « بتضريب أعناق الملوك » ، بل « بتضريب أعناق » الشهوات السود في القلب التي تحجبه عن البصر والبصيرة . وصونه من الأذى لا يتمّ لنا بإراقة دماء الغير « على جوانبه » بل بإراقة دم القلب في دفع الأذى الذي يأتيه من داخل القلب لا من خارجه . فما أبعده عن ذلك الشرف « الدون كيخوتيّ » الذي عناه صاحبنا المتنبي في بيته المشهور !

ألا ليت المتنبي والذين ما برحوا يرددون بيته بالإعجاب فَهِم ويفهمون أن « الشرف الرفيع » لا يؤذى من الناس بل من قلب صاحبه . وانّه لا يُغسل من أدرانه بدماء الغير بل بدم القلب الذي يؤويه ويحسّه ويحيا به . وأنّه لا يؤذى لأنّه شرفٌ صحيح وشرف رفيع .

صغار النفوس وكبارها

خير ما تمدح به أيّ إنسان قولك فيه انّه ذو نفس كبيرة . وشرّ ما تذمّ به أيّ إنسان قولك إنّه ذو نفس صغيرة . ولولا كبار النفوس في الأرض لكانت الأرض جحيماً . ولولا صغار النفوس فيها لكانت نعيماً . أولئك كالنحل . وهؤلاء كالذباب . فبينا تعيش النحلة مع الأزهار ومن الأزهار ، تعيش الذبابة في الأقذار ومن الأقذار . والنحلة إذ تمتصّ من الزهرة رحيقها لا تسلبها شيئاً هي في حاجة إليه . بل تأخذ منها ما هي في غنًى عنه لتعطيها لقاءه ما لا حياة لها إلاّ به — وأعني لقاح الحياة . ثمّ تعود النحلة فتقدّم جناها إلى الناس شهداً شهيّاً . أمّا الذبابة الّتي لا يطيب لها إلاّ التمرّغ في الأقذار فلا تنقل إلى الناس غير ما في الأقذار من سموم قتّالة . النحلة تحمل البرء للسقيم . والذبابة تحمل السقم للبريء .

وإن تسألني عن الصفات الّتي تميّز كبير النفس من صغيرها أجبك بأنّها قد تجمّعت كلّها في صفة واحدة هي « النُّبل » . والنبل في النفس لا يأتيها من كرامة المحتد ، ولا من رفعة الجاه ، ولا من سعة الثروة ، ولا من بريق الشهرة في أيّ فرع

من فروع الاجتهاد البشريّ . إنّه عصارة اختبارات لا تحصى مرّت بها النفس على مدى حيوات عديدات .

من كان ذا نفس كبيرة كان أنبل من أن يغتاب أحداً من الناس أو أن ينمّ على أحد من الناس . فالغيبة والنميمة أقذار لا يستطيب التغلغل في أجوافها النتنة والانتشاء بروائحها الكريهة إلاّ صغار النفوس . وهؤلاء قد يكونون من أعرق العيال حسباً ، أو من أرفع الناس مركزاً ، أو من أوفرهم ثروةً ، أو من أبعدهم شهرة في دنيا العلم والفنّ والسياسة والدين والاجتماع ، ويكون ما بينهم وبين النبل من شاسع البون مثل ما بين الأرض وزحل .

ومن كان ذا نفس كبيرة كان أبعد الناس عن التبجّح . فما تبجّح إنسان بقوّة بدنيّة أو عقليّة ، أو بمال أو عقار ، أو بنسبٍ أو جاه ، أو بشهرة أو بسلطان إلاّ لأن في نفسه الصغيرة جوعاً إلى العظمة الحقّة التي تأبى الانقياد إليه ، فيحاول أن يبتزّها من الغير ابتزازاً — ولو بقوّة حنكه ولسانه .

ومن كانت نفسه كبيرة أبت عليه أن يظهر أمام الناس على غير حقيقته . فما خجل بجهله بين العلماء ، ولا بفقره بين الأثرياء ، ولا بضعفه بين الأقوياء . وإن هو كان على شيء من العلم والثروة والقوّة ما زها بذلك على الجهلاء والفقراء

والضعفاء ، بل على العكس ، قلّل من قيمة هذه الأشياء مخافة أن يخجل منه الجاهل والفقير والضعيف . أمّا الذين صغرت نفوسهم فيسيرون في الأرض بوجوه ليست وجوههم ، وألسنة ليست ألسنتهم ، ولباس ليس لباسهم . فهم أبداً يُبْطنون غير ما يُظهرون ، وينطقون بغير ما يفكّرون ويشعرون ، ويُسعدهم أن ينخدع الناس بما يُظهرون عمّا يُبطنون .

والذي نفسه كبيرة لا يكبر على أيّ إنسان ، ولا يذلّ لأيّ إنسان . فهو يعلم أن كرامته لا تُصان إلاّ إذا هو صان كرامة الغير ، وان كرامةً تقوم على مذلّة الغير لمَذلّة في ثوب الكرامة . وهو يأبَى على كرامته أن تكون تاجاً من نسيج العنكبوت تعبث به نفخة ريح عابرة قد لا تكون أكثر من كلمة طائشة ، أو حركة نابية تأتيه من حسود أو نمّام أو عدوّ — أو من صديق حميم . ولذلك لا يقابل الكلمة الطائشة بكلمة طائشة ، ولا الحركة النابية بحركة نابية . ولا هو يحسد حاسديه ويعادي الذين يعادونه ، ويشمت بالذين يشمتون به . فنفسه أسمى من أن تنحدر إلى مثل هذه الصغائر ، وأنقى من أن تتمرّغ في مثل هذه الأوحال . وشرفه أرفع من أن يكون ذلك الشرف الذي لا يسلم من الأذى « حتّى يراقَ على جوانبه الدّم » . أمّا الذي صغرت نفسه فلا ينفكّ يحدّثك عن شرفه

وعزّته وكرامته ، ولا يهنأ له عيش إلاّ إذا كال لخصمه الكيل كيلين ، فردّ الشتيمة شتيمتين ، واللكمة لكمتين ، والعضّة عضّتين . وأسخف ما يأتيه صغار النفوس من هذا القبيل لجوؤهم إلى القضاء « لتحصيل » شرفهم . حتّى إذا حصلوا على حكم ولو بغرامة رمزيّة يدفعها لهم الذين أهانوهم شعروا بأن شرفهم المهان قد عاد إليهم طاهراً من كلّ وصمة وشائبة ، والتفتوا التفاتة الازدراء والشماتة إلى الذي حاول النّيل منه .

إنّ كبار النفوس إذا أعطوا فيسارهم — على حدّ قول السيّد المسيح — لا تدري بما تفعله يمينهم . وإذا جاؤوا بالمعجزات تهرّبوا من تكريم الناس وتبجيلهم . وإذا أغدقت الحياة عليهم الأفراح ستروها عن عيون الحزانى . وإذا كانوا شباعاً خجلوا من التحدّث عن شبعهم أمام الجياع . أمّا صغار النفوس فإن تصدّقوا بدرهم تمنّوا لو يَسمع كلّ مَن في السماء وعلى الأرض رنّته . وإن قعدوا أو قاموا شاقهم أن تعرف المسكونة بأسرها كيف قعدوا وكيف قاموا ، وأين ولماذا . وإن زارتهم ساعة طرب مضوا يقرعون صنوجهم وينفخون في مزاميرهم حتّى في المآتم . وإن شبعوا راحوا يحدّثون الجياع عن شتّى المآكل الشهيّة التي حشوا بها بطونهم .

أما اتّفق لك أن رأيت والدة تلاعب طفلها فتمضي تشمّه بلهفة وتضمّه ، ولا تنفكّ تناجيه بأعذب ما تتقنه الأمهات من عذب الكلام أمثال « يا روحي . يا عويناتي . تسلم لي . تقبرني » وما شاكلها — وذلك في حضرة جارة حرمتها الحياة لذّة الأمومة ؟ ! أما شعرت ، وأنت تسمع تلك الأمّ ، أن كلماتها كانت بمثابة خناجر تغمدها في صدر جارتها العاقر ؟

أما ابتُليت بجماعة من الأثرياء يتنافسون بما أنفقه كلّ منهم على حاجاته الخاصّة وحاجات بيته ، ويتذاكرون ما ربحوه أو خسروه في القمار ، ثمّ يباهون بأنّهم زاروا بلاد كيت وكيت فنزلوا في أعظم فنادقها ، وأكلوا في أفخم مطاعمها ، وخاطوا لهم ثياباً عند أشهر خياطيها ، وابتاعوا كيت وكيت من تحفها ؟ وقد تكون أنت بينهم من الذين لا يملكون غير الثياب التي على أبدانهم ، والذين يأكلون ولا يشبعون ، ويأوون إلى بيوت خلَت إلاّ من كرسيّ وفراش وحصير .

أما وجدتك ولو مرّة بين زمرة من السيّدات الأنيقات وقد رحن يتحدّثن عن « الصنّاع » في بيوتهن حديث من يحسبن أن الله كوّنهن من عبير ونور وكوّن « الصنّاع » من رغام وسخام — وذلك على مسمع من « الصنّاع » ؟

أمّا أنا فقد عرفت سيّدات وأسياداً إذا كانت الحاجة التي يريدونها في متناول أيديهم أبوا أن يتناولوها إلاّ من الخادم أو الخادمة !

دعاني مرّة أحد الأغنياء إلى الركوب معه في سيارته الجديدة . وعندما هممت بفتح الباب انتهر سائقه لأنّه لم يبادر إلى فتحه . ثمّ فتحه هو بيده — ولكن على مضض . وفي لمحة الطرف قفز إلى الداخل فجلس إلى اليمين وأجلسني إلى اليسار . فكأنّه عندما هممت بفتح الباب ، خاف أن أسبقه إلى « مقعد الشرف » . ما أبهت للأمر في البداية . ولكنه عندما راح يحدّثني عن سيارته وعن ثمنها وعن الحسنات التي تمتاز بها على غيرها من السيارات ، ثمّ راح يحدجني من طرف عينه مخافة أن يلمس حذائي مخمل السيارة ، أو أن تبدر مني حركة تسيء إلى زرّ أو مسكة أو ممسحة — عندئذ ندمت على قبولي دعوته وتمنّيتُ لو أنْتَشَل بغتةً من السيارة بقدرة قادر أو بسحر ساحر .

إنّك لو بحثت عن أيّ خصام يقوم في الأرض ، سواء أكان بين فردين ، أم عصبتين ، أم دولتين ، أم مجموعتين من الدول لوجدته يعود في الأساس إلى صغارة في نفوس المختصمين . فما اختصم اثنان إلاّ لأن صدر الواحد ضاق بالآخر . والصدر يضيق أو يتسع على قدر ما تصغر النفس

أو تكبر . ففي حين أن النفس الصغيرة تضيق بالكبيرة فتناصبها العداء ، تتسع الكبيرة للصغيرة فتقابلها إمّا بالصفح وإمّا باللامبالاة . لذلك كان صغار النفوس مبعث الفساد والقلق في الأرض . وكان كبار النفوس ملح الأرض وخميرتها ، والواحات النديّة النضرة في صحاريها .

الناجحون والراسبون

لو كان لنا أن نقيس حرارة المدارس من يوم ليوم لوجدناها تبلغ الذروة — أي درجة الغليان — في موسم الامتحانات التي تنتهي بها كلّ سنة دراسية . فالأساتذة إذ ذاك في حركات محمومة ينسّقون الخطط السرية للهجوم الصاعق على معشر الطلاب . والطلاب — والهف قلبي عليهم — يتجمّعون ويتفرّقون ، ويتهامسون ويتحرقون ، ويبثّون العيون ويلاوصون ، لعلّهم يعرفون قبل بدء الهجوم بأيّ سلاح ومن أين سيهاجَمون . وهم لا يملكون القدرة على تنظيم صفوفهم للقيام بدفاع مشترك ضدّ الهجوم المشترك الذي يُشَنّ عليهم . فالقانون صارم من هذا القبيل . وهو يقضي بأن يدخل الطالب حومة الامتحان صفر اليدين من كلّ سلاح إلاّ من قلم ومن بعض القرطاس ما شوّهت نقاوته حروف أو رسوم . والويل ثمّ الويل لمن تسوّل له نفسه التمرّد على القانون ، فيوشوش جاره ، أو يختلس نظرة من دفتره ، أو يصطحب كتاباً إلى جبهة القتال ، أو يدخل المعمعة وعلى كم قميصه أرقام وطلاسم . فجزاؤه إذ ذاك الطرد . والطرد

يعني إقفال باب « المعرفة » في وجهه إلى الأبد .

وتبتدىء المعركة . وإذا بالطلاب يتبعثر شملهم ، وتخفت أصواتهم ، ويهرب الأُنس من عيونهم ، وتتقنّع وجوههم بقناع من الهمّ والوجل . فلا الأكل مستطاب ، ولا الشراب مريء . ولا العبث مستحبّ ، ولا النوم ينقاد إلى الجفون . إذ أنّ كلّ طالب مُكره على تقديم حساب في بضعة أيّام عن كلّ ما درسه في خلال تسعة شهور . وهو إذ يتفقّد ذاكرته يجد أن الكثير ممّا درسه قد تبخّر منها ، أو أنّ بعضه قد اختلط ببعض إلى حدّ أنّه يتعذّر عليه ردّ الأمور إلى مصادرها . وإذن فلا مناص من المراجعة ، ولا بد من جَلد الذاكرة جلداً عنيفاً .

ويعود الطالب إلى الكتاب الذي سئم منظره وعشرته في خلال الشهور التسعة ، فيختلي به في ظلّ شجرة أو جدار ، أو في قبوٍ أو سرداب . ويصطحبه إلى غرفة الأكل والنوم ، ويمضي يقلّب صفحاته من جديد وهو يود لو يستطيع أن يطبع كلّ كلمة من كلماته على شغاف قلبه ، أو على جفون عينيه ، أو أن يحفره في ذاكرته حفراً . ولكن الذاكرة تتبالد وتحرن ، وتنفر من صفحات الكتاب إلى مشاهد بعيدة كلّ البعد عمّا في الكتاب . فينتهرها بشدّة ، ويمسك بعنانها ويجلدها بغير شفقة ، ويردّها المرّة تلو المرّة إلى الصفحة التي

أمام عينيه . وقد تكون تلك الصفحة مجموعة طلاسم كيميائيّة أو معادلات رياضيّة ، أو قصيدة للشنفرى ، أو خطبة لشيشرون ، أو صورة لامعاء ضفدع مع وصف مسهب لأجزائها وأسمائها ووظائفها ، أو غير ذلك ممّا يدخل في البرامج المدرسيّة على اختلافها . وما ان يظنّ أن ذاكرته قد أسلست له قيادها حتّى يراها تحرن من جديد ، أو تعضّ اللجام فتجري على هواها لا على هواه . وينتهي بأن يكره الكتاب الذي في يده كما لو كان عدوّه الألد .

ويدخل الطالب غرفة الامتحان مقرّح الأجفان من كثرة السهر ، منهنه الأعصاب من شدّة الاجهاد ، وقلبه ينبض كقلب خشف تطارده عانة من الذئاب . أيخدمه الحظّ فتأتي الأسئلة من النوع الذي يستطيع الجواب عليه ؟ أتسعفه الذاكرة أم تخونه ؟ أيكون من الناجحين أم من الراسبين ؟ وإذا هو رسب فبأيّ وجه يقابل والديه وقد أنفقا على تعليمه من المال ما أنفقا ؟ وقد يكون ذلك المال نتيجة جهود طويلة وحرمان مضنك لوالديه وإخوانه . وبأيّ عين ينظر إلى الناجحين من رفاقه ، وبأيّ قلب يواجه المستقبل ؟

وتنتهي معركة الامتحانات فينجلي غبارها بعد حين عن نفر واتاهم الحظّ وأسعفتهم الذاكرة فكانوا من الناجحين . وعن آخرين تنكّر لهم الحظّ وخانتهم الذاكرة فكانوا من

الراسبين . ويفرح الناجحون وأهل الناجحين فيولمون الولائم ويتقبّلون تهانيء المهنئين . ويحزن الراسبون وأهل الراسبين فيتهرّبون من الشامتين والمعزّين . ويظنّ المغفّلون – وأكثر الناس مغفّلون – أن حكماً أصدره معلّم أو جماعة من المعلّمين على هذا الطالب أو ذاك هو حكم مبرم لا يقبل الردّ ولا التأويل . وأن الناجحين في امتحانات المدارس هم بغير شكّ أفضل من الراسبين .

ولكن الناجحين والراسبين لا يلبثون في النهاية أن يخوضوا المعركة الكبرى – معركة الحياة القاسية – حيث الكفاح على أشده ، وحيث يُمتحنون في كلّ لحظة امتحاناً لا محاباة فيه ولا تزوير . وأمّا المواد التي يُمتحنون فيها فأكثر من أن تنحصر بين دفتي كتاب ، بل بين دفات ألف ألف كتاب . فهي تتناول جميع ما يقولون ويفعلون ، وجميع ما يضمرون ويظهرون . والأنكى من ذلك أنّهم لا يبصرون لفاحصيهم وجهاً ، ولا يسمعون لهم صوتاً ، ولا يعرفون لهم مقرّاً . فكأنّهم في كلّ شيء ممّا على الأرض وفي السماء . بل كأنّهم في كلّ زمان ومكان . لا تفوتهم شهوة ولا نيّة ، ولا يستتر عن أبصارهم فكر ولا خيال . فهم بحقّ فاحصو « القلوب والكلى » والعارفون « بذوات الصدور » .

وما أكثر ما نرى الناجحين في الامتحانات المدرسيّة

يرسبون في امتحانات الحياة ! وما أكثر ما نرى الراسبين ينجحون ! ثمّ ما أكثر الذين ما كان لهم من الدراسة أيّ نصيب ، أو كان نصيبهم منها جد ضئيل ، ولكنهم ، مع ذلك ، تمكّنوا من شقّ طريقهم إلى مقدمة الركب البشري ! فليس أدعى إلى الشفقة من حامل بكالوريا يطرق أبواب دواوين الدولة ناشداً وظيفة فلا يحظى بوظيفة ، وأبواب رجال الأعمال طالباً عملاً فلا يجده . وهكذا ينتهي إلى القنوط والخمول . وكم من دكتور في الفلسفة انزوى في معهد من معاهد التدريس الثانوية وهو راضٍ من جهده بالكفاف ، فلا يشعّ منه نور فلسفة ، ولا يكاد يعرف بوجوده إلاّ طلابه وذووه. وليس أدعى إلى الإعجاب من رجل رسب في امتحاناته المدرسيّة ونجح في امتحانات مدرسة الحياة ، فأصبح علَماً من الأعلام ، ومنارة يهتدى بنورها أو — على حدّ قول القدامى — سارت بذكره الركبان .

وإني لأسأل — والحالة كما وصفت : أي جدوى تجنيها البشريّة على الإجمال ، والطالب على الأخصّ ، من الامتحانات المدرسيّة ؟ أليس أن هذه الامتحانات إرهاق لا طائل تحته للطالب وللمعلّم بالسواء ، ثمّ تضليل للناس في تقديرهم لهذا الطالب أو ذاك ؟

ما دامت الحياة التي يترتب على الطالب أن يحياها بعد

خروجه من المدرسة هي الّتي تقرّر في النهاية كفاءته أو عدم كفاءته لخدمة نفسه وخدمة الناس ، ولمعايشتهم يوماً بعد يوم وفي كلّ لحظة من وجوده ، فما قيمة شهادة تمنحها المدرسة على أساس امتحانات أجراها معلّم أو جماعة من المعلّمين في هذه المعلومات أو في تلك ! ثمّ ما قيمة الامتحانات النهائيّة الّتي تُكره الطالب في نهاية السنة أن يستعيد إلى الذاكرة في بضعة أيّام جميع ما درسه في تسعة شهور ؟ وكلّنا يعلم أن الطلاب — حتّى الناجحين منهم — لا يمضي على امتحانهم النهائي عام أو بعض العام إلاّ ينسون أكثر ما استعادوه إلى الذاكرة استعداداً للامتحان . أليس من الأفضل لنا وللمدارس لو تلغى الامتحانات النهائيّة ، ولو تعطى الشهادات للطلاب بالمواد الّتي درسوها في خلال حياتهم المدرسيّة فلا يكون إذ ذاك ناجحون وراسبون ؟ أمّا الشهادة النهائيّة في أهلية هذا الطالب أو ذلك فلنتركها للحياة كما نحياها يوماً بعد يوم . فهي الّتي حكمها الحكم الصحيح والأخير . وهي الّتي تمتحننا في كلّ طرفة عين وفي مواد لا قِبل للمدرسة بتدريسها .

وأية مدرسة تستطيع أن تعجم عود الطالب إلى حدّ أن تعرف الغاية الّتي أعدته لها الحياة ، والمسالك الخفيّة الّتي هيأتها له إلى تلك الغاية ، ومقدرته على الصبر والجهاد ، وعلى الافادة من كلّ ظرف طارىء وخبرة جديدة ، وعلى ارتياد المجهول

في نفسه وتمزيق الحجب عمّا انطوى في كيانه من قوى عاطفيّة وفكريّة وروحيّة ، وعلى مجابهة الأحداث والتغلّب على العقبات ؟

وإذ ذاك فمن الغبن والحيف وهدر القوى بغير جدوى أن نرهق الطالب بالامتحانات النهائيّة ، وأن نجني على الناجحين والراسبين بشهادات يستحيل أن نتبيّن منها جميع مؤهلاتهم للبقاء والكفاح في حياة مقاييسها غير مقاييسنا ، وأحكامها غير أحكامنا . ولها الكلمة الأخيرة في من هم الناجحون ومن هم الراسبون .

صابون القلوب

العتاب صابون القلوب !

هذا مثل شائع تتناقله الألسن من أقدم الأزمان . وهو كغيره من الأمثال يعبّر تعبيراً جميلاً عن حكمة عمليّة اكتسبتها البشريّة بالاختبار الطويل على مدى الأجيال . والحكمة فيه أن اثنين تنافر قلباهما لسبب من الأسباب ، إذا هما اجتمعا فيما بعد وتبادلا وجهات النظر في الخلاف الذي بينهما توصلا في النهاية إلى التفاهم والتقارب . فكأنّهما بالعتاب قد غسلا ما علق في قلب كلّ منهما ضدّ الآخر من أدران . فكان العتاب لقلبيهما ما يكونه الصابون عادة للقطعة القذرة ، واليد الوسخة ، والجرح القائح ، والمنديل المبلّل بالعرق أو بالرغام .

والعتاب ، لكي يكون بحقّ صابون القلوب ، لا بدّ من أن يتبطّن عن نيّة صادقة في الوصول إلى تفاهم وتقارب . وإلاّ كان باروداً لا صابوناً . فما أكثر ما يأتي العتاب توسيعاً للخرق وزيادة بلّة في الطين . وإذا النفور البسيط ينقلب عداوة ضارية . وإذا الشقّة الضيّقة بين قلبين متنافرين تغدو هاوية سحيقة يتعذّر مدّ جسر فوقها . وهكذا ، فقولهم إن « العتاب

صابون القلوب » قول يتضمّن شرطاً بل شروطاً . فلا يجوز أن يجري على إطلاقه . ولكنه يستقيم معناه على الإطلاق إذا نحن فهمنا بالعتاب محاسبة يجريها اثنان برغبة صادقة ونيّة طاهرة لتصفية ما بينهما من حساب . ثمّ إذا نحن توسعنا في فهمه فجعلناه كذلك محاسبة بين الإنسان ونفسه مثلما هو محاسبة بين إنسانين أو جماعتين من الناس .

وكيفما كان الأمر فالذي يهمّني من المثل هو اعترافه العلني بأنّ القلوب في حاجة إلى « صابون » . ومعنى ذلك أنّها عرضة للأقذار على غرار ما هي الوجوه والرؤوس والأيدي والأرجل وباقي ظاهر البدن ، وعلى غرار ما هي الثياب التي نرتديها ، والمناديل التي نمسح بها عرقنا وننظف أنوفنا ، والأدوات التي نستعملها للطهي والأكل والشرب ، وغيرها وغيرها من الأشياء التي نملأ بها مساكننا والتي إذا لم نتداركها من حين إلى حين بالماء والصابون ، أو بالخرقة والمكنسة ، ركبتنا الآفات والحشرات ، وفاحت منّا ومن مساكننا روائح النتن والعفن .

وإنّه لفي منتهى الغرابة حقّاً أن ترى الناس — والمتمدنين منهم على الأخص — يتهالكون في تنظيف أبدانهم وملابسهم ومساكنهم ، ويحرصون أشدّ الحرص على أن يكون كلّ ما يأكلون ويشربون خالياً من الغشّ والوسخ ، في حين

لا يأبهون بالقواذير التي في قلوبهم . فكأن قلوبهم ليست منهم ، وكأنّ ما فيها من قذارة لا يتّصل بهم من قريب أو من بعيد . فواحدهم يُصعق خزياً ويتمنى لو تنشقّ الأرض وتبتلعه إذا أنت أبصرت قملةً ترعى في رأسه ، أو بقّة تدرج على وسادته ، أو شعرة في فنجان قهوة يقدمه لك ، أو سواداً تحت ظفره . ولكنّه لا يبالي على الإطلاق بالثعابين والعقارب والديدان يربيها في قلبه فتنهشه نهشاً ، ولا بالجيف المكدسة في أفكاره ، ولا بالعفن تحمله قطرات دمه إلى قلبه ومن هناك توزّعه في كلّ ناحية من نواحي جسمه .

ويبالغ البعض في النظافة والأناقة ، فيستحمّ أكثر من مرّة في النهار ، ولا يطيق ذرة غبار على ثوبه أو حذائه ، ولا يهنأ له نوم إلاّ بين ملاءتين طهرتهما الصابونة والشمس والهواء . اما انّه يسير بين الناس وفي قلبه مزابل ، وفي فكره أكداس من الغبار ؛ واماّ انّه يأوي إلى فراشه النظيف بروح تلبّد فيها الوسخ فذلك لا يقلقه في النهار ولا يزعجه في الليل .

ويمرض أحدهم فيبادر إلى فحص دمه ليعرف إذا كان ملوّثاً بجرثومة من الجراثيم التي تسبب طائفة من الأمراض الفتّاكة كالتيفوئيد والملاريا والسلّ وفقر الدم وغيرها . حتى إذا عرف نوع الجرثومة عالجها بالدواء الذي يظنّ أنّه يقضي عليها . فالجراثيم في الدم هي أوساخ لا بدّ من القضاء عليها

إذا نحن شئنا أن يبقى الجسم سليماً . وإذن فالدم النقيّ هو شرط أساسيّ من شروط العافية وسلامة البدن . ولكن الطب الذي أدرك هذه الحقيقة ما أدرك بعد حقيقة أهمّ منها بكثير . وهي أن الدم قابل للتلوّث بجراثيم أشدّ هولاً وفتكاً من الجراثيم التي تنقف منها الأمراض . وهذه الجراثيم لا تبصر بالمكروسكوب ، ولا تستطاع معالجتها بأيّ من العقاقير .

ما من نيّة ننويها ، أو شهوة نشتهيها ، إلاّ يتلقّفها الدم في الحال فيمشي بها إلى القلب الذي يعود فيوزعها على سائر الجسد مع كلّ نبضة من نبضاته . وهذه النيات والأفكار والشهوات من شأنها أن تترك رواسب في القلب، بعضها يتحوّل قذارة تتزاوج وتتوالد فيها الجراثيم القتّالة . وبعضها يغدو للدم بمثابة النور للعين ، والأريج للأنف ، والشهد للسان .

إن دماً تشحنه مكراً ونفاقاً وبغضاً وجشعاً وحسداً وثأراً وما إليها يستحيل أن يكون دماً نقيّاً . والقلب الذي ينبض بهذا الدم قلب قذر من غير شكّ . وذلك القلب ما لم يُغسل بصابون الصدق والاستقامة والمحبّة والرضى والتسامح والغفران كان بؤرة فساد للجسد الذي يحمله . وما أكثر ما تأتينا الأمراض من دم أفسدناه بنياتنا وأفكارنا وشهواتنا الفاسدة. فأحرِ بنا ، قبل أن نفحص الدم لنعرف ما فيه من جراثيم خبيثة ، أن نتفقد القلب لنعرف بماذا شحنّاه من خبيث الميول

والنيات والأفكار والشهوات . ويقيني أن الناس لو حرصوا على نظافة قلوبهم حرصهم على نظافة أبدانهم لأصبحوا في غنى عن الطبّ والأطباء ، وعن العقاقير والصيدليات .

أما قيل من قديم إن « السرّ في السكان لا في المكان » ؟ فما بالنا نهتمّ بالمكان وتجميله وتنظيفه ، أمّا السكان فنهملهم كأنّهم ليسوا من الأهميّة على شيء ؟ ما بالنا نغالي في العناية بالبدن الذي ليس أكثر من مسكن ، ولا نلقي بالاً إلى سكانه ؟ وهل سكان البدن غير الأحاسيس والمشاعر والميول والأحلام والأفكار والشهوات التي لا تنفك تتوالد في كلّ لحظة من وجودنا ؟ وهذه بعضها نقيّ وطاهر وجميل كالمحبّة والدعة ونكران الذات والصدق والرأفة والغفران . فعلينا أن نصونه نقيّاً وطاهراً وجميلاً إذا نحن شئنا أن نحيا حياة نقيّة وطاهرة وجميلة . وبعضها قذرٌ وبشع ، كالبغض والكبرياء والرياء والقسوة والحقد . فعلينا أن نغسل قلوبنا منه .

ألا ليتنا نختم كلّ يوم من أيّام حياتنا بمحاسبة دقيقة نجريها مع أنفسنا . فلا نستسلم للنوم إلاّ بعد أن نغسل قلوبنا – قبل وجوهنا – من كلّ ما تجمّع فيها من أقذار في خلال النهار . فلا تغمض أجفاننا على كره لأيّ إنسان سواء أكان مبعث ذلك الكره اختلافاً في مذهب دينيّ أو سياسيّ ، أو في الذوق أو في المصلحة . ولا على حسد أو ضغينة لأيّ إنسان .

فالكره والحسد والضغينة ــ مهما يكن مبعثها ــ أوساخ لا يليق بالقلب المؤمن بحقّه في الحياة أن يغذيها بدمه ، لأنّها في النهاية تفسده .

ألا ليتنا نختم كلّ عام من أعوام عمرنا بمحاسبة شاملة عن كلّ ما ربحناه أو خسرناه من محبّة وصداقة وإيمان ومعرفة ومناعة روحيّة في خلال ذلك العام . حتى إذا ما أطلّ علينا العام الجديد استطعنا أن نستقبله بقلوب مغسولة من أدران الضغائن والمخاوف والمخازي ، ثمّ استطعنا أن نقول لسائر الأكوان وللناس أجمعين :

كلّ عام وأنتم بخير !

دفاع عن الظلمة

كلّنا يتغنّى بالنور . أمّا الظلمة فليس من يذكرها بغير السوء . فهي عنوان الجهل والضلال ، ومصدر المخاوف والمعاثر ، ومسرح المخازي والشرور ، والخضمّ الهائل الذي لا يقتحمه شراع ولا يضرب فيه مجذاف .

في الظلمة تتعطّل العين . فلا نفع منها هادياً للرِّجْل . ولا نفع من الرِّجْل قائداً للجسد . فقد تقوده في رفّة جفن إلى حيث هلاكها وهلاكه . أمّا اليد فآلة لا يُركن إليها ولا يؤمن خطرها . فقد تقبض في الظلام على عقرب أو صلّ إذ هي تفتّش عن بَصَلة أو عن حبل .

وفي الظلمة تختلّ ، بل تنعدم المقاييس جميعها . فلا طول ولا عرض ، ولا عمق ولا علوّ ، ولا شرق ولا غرب . بل هنالك امتداد بغير بداية أو نهاية . وفي هذا الامتـــداد اللامتناهي لا فرق بين قريب وبعيد ، وكبير وصغير ، وجميل وقبيح . مثلما لا فرق بين أبيض وأحمر ، وأصفر وأخضر . فالكلّ سوادٌ حالك . بل الأصحّ انّه بغير لون . فالظلام ، وإن نعتناه بالسواد ، هو غير السواد الذي نبصره في النهار .

إنّه انعدام اللون انعداماً كليّاً .

وعلى الإجمال ، فالظلمة بالنسبة إلينا تكاد تكون مرادفة للموت . وحسبها أن تمحو معالمنا ودروبنا لتشلّ كلّ حركة فينا وتتركنا مقعدين عن أيّ عمل ومكفوفين عن أيّ هدف .

وأمّا النور ، فمنذا يستطيع أن يلمّ ولو بجانب من حسناته وجمالاته ؟ فهو بلمحة الطرف يكشف لنا دنيوات من السحر والفتنة . وإذا نحن نسعى سعياً محموماً لنغترف ما استطعنا من ذلك السحر وتلك الفتنة . وإذا بنا في حرب ضروس مع كلّ ما يعترض سبيلنا إلى هدف من أهدافنا . فحيثما اعترضتنا أشياء ما تزال محجبة بالظلمة دون أبصارنا ، عملنا بكلّ قوانا على هتك تلك الحجب كيْما نكون ويكون كلّ ما حوالينا في نور سرمديّ . وإذ ذاك فلا عجب إن نحن حالفنا النور وتعشقناه . وحاربنا الظلمة ومقتناها .

أما قال الخالق في فجر الخليقة ، يوم « كانت الأرض خَرِبة وخالية وعلى وجه الغمر ظلام » — ليكن نور فكان نور ؟ أما علّمنا الأنبياء والمرسلون أن « من سار في النور لا يعثر » ؟ أما قالوا لنا : « ليضيء نوركم أمام الناس » ؟ أما حذّرونا من الظلام وجميع الموبقات التي تتستر بالظلام ؟ وإذن فالنور هو الحقّ — كلّ الحقّ . والجمال — كل الجمال . والظلمة هي الضلال — كلّ الضلال . والبشاعة —

كلّ البشاعة .

ذلك هو الحكم الذي يصدره الناس للنور ضد الظلمة . وهو ، في نظري ، حكم جائر إلى حدّ بعيد . فلا النور كلّه حسنات بغير سيئات . ولا الظلمة كلّها سيّئات بغير حسنات .

وأُولى حسنات الظلمة وأجلّها وأعظمها على الإطلاق هي أنّها الرحم التي فيها تتكوّن وبها تتستّر الحياة من قبل ومن بعد أن يتلقّفها النور .

أما ترى إلى الحياة ما أشدّ حرصها في الحفاظ على جرثومتها المقدسة بعيدة منتهى البعد عن النور ؟ إنّها لتخشى عليها الفساد والتلف والتلاشي إذا هي تعرّضت ولو لنظرة خاطفة من نظرات النور . ولذلك تغلّفها بغلاف ضمن غلاف من الظلمات . ذلك هو شأنها في دنيا الأحياء ، عاقلها وأعجمها ، وكذلك في دنيا الجماد والنبات . فالنطفة التي منها الإنسان والحيوان تنطلق من ظلمة دامسة في الذكر إلى ظلمة دامسة في الأنثى لتبقى هنالك ساعات أو أيّاماً أو شهوراً . فلا تبرز إلى النور إلاّ وقد استكملت شكلها وأعضاءها وسائر القوى التي تمكنها من السير في ركاب النور حتّى تستوفي نموّها وتبلغ الغاية من وجودها .

والبذور التي منها النبات — وما أكثر أنواعها وأعجب

أشكالها وألوانها ! — أليست هي كذلك حصوناً من الظلمات لجرثومة الحياة التي فيها ؟ فأنت لو أخذت بذرة الأرز — مثلاً — وفلقتها فكشفت قلبها للنور لقضيت حتماً على الأرزة المكفّنة فيها . لكنّك لو دفنتها في ظلمة التراب من غير أن تمزّق كفناً من أكفانها ، ثمّ تركتها في عهدة الشمس والبحر والهواء لبرزت بعد حين إلى النور نبتة نحيفة خضراء لا تلبث بعد سنين أن تصبح شجرة عتيّة ، متشابكة الأفانين ، هازئة بالأعاصير والسنين .

وانظر إلى جذور النبات كيف أنّها لا تمتد وتنمو إلاّ في الظلام . وما عليك ، إذا شئت إتلاف نبتة من النبات ، إلاّ أن تكشف عن جذورها وتتركها عرضة للنور . ثمّ انظر إلى ساق أيّ نبتة وفروعها وأغصانها وأوراقها وأثمارها — ان تكن من المثمرات — ترَ أنّ هذه جميعها ليست سوى غُلُف تتغلف بها الحياة في تلك النبتة لتبقى في ظلمة دامسة وفي مأمن من النور .

بل انظر إلى جسدك فهو أقرب الأجساد الحيّة إليك . أما ترى كيف أن الطبيعة قد لفّته من أمّ رأسه حتى أخمصيه بغلاف من الجلد كيما تتيح للحياة أن تعمل عملها في سكينة الظلام ؟ فلا دماغك ولا قلبك ولا رئتاك ولا كليتاك ولا امعاؤك تستطيع أن تقوم بوظائفها إلاّ في ظلمات دامسات .

أما دمك ، وهو رسول الحياة في جسدك ، فما ان تتعرّض قطرة منه للنور حتى تتخثّر في الحال ثمّ تتجمّد . فكأن بينها وبين النور عداوة ولا كالتي بين الهرّ والفأر .

وإن أنت جاوزت عالم الأحياء إلى عالم الأفكار والمشاعر والتخيلات وجدت ان هذه كذلك ، من أنبلها حتى أخسّها ، تولد وتنمو وتتلاقح وتتناسل في الظلام . وإن هي برزت إلى النور في شكل كلمة أو حركة أو خطّ أو لون أو غيرها من وسائل التعبير المألوفة فإنّما تبرز بقشورها لا أكثر . أمّا الجوهر الذي هو حقيقتها فيبقى محجباً بالظلام .

أما اتّفق لك أن تغمض عينيك كلّما حاولت أن تستعيد ذكرى هاربة ، أو أن تفكر في أمور ذات بال ، أو أن تحلّ عقدة من العقد الزمنيّة والروحيّة التي تعترض سبيلك ؟ أليس معنى ذلك أن ذاكرتك وفكرك وخيالك وإرادتك تؤثر أن تعمل عملها في العتمة ، وفي معزل عن النور ؟ ويقيني أنّك لو استنطقت عباقرة الفكر والخيال منذ أقدم الأزمان حتى هذا الزمان ، لأجابوك بما يشبه الإجماع انّهم ما حبلوا بروائعهم إلاّ في ظلمات السكينة أو في سكينة الظلمات . فما أكثر ما يشوّه النور الأشياء ويظهرها على غير حقيقتها . فيوهمنا أبداً أنّها بما بدا منها لأبصارنا لا بما تحجّب عنها . وهكذا يخدعنا عن لباب الحياة بقشورها . وإذ ذاك فخليق بنا أن لا نغالي

في مدحه وذمّ الظلمة .

لئن دافعتُ عن الظلمة فلأنّها ، كما أسلفت ، تلك الرحم العجيبة ، المباركة التي فيها تتجسّد الحياة لتدرج منها إلى النور ، ولكن في جلابيب يغمرها النور ولا يخترقها . وانّه لمن السخافة بمكان أن نحاول هتك الظلمات التي تلتفّ بها الحياة عن طريق البصر الذي لا يستطيع العمل إلاّ بالنور وفي النور . أفما من طريق لنا إلى قلب الحياة غير طريق البصر ؟

أجل . هنالك طريق البصيرة . فالبصيرة هي العين الباطنية التي لا تتكل على نور الشمس والقمر والنجوم ، فلا تعطّلها الظلمات مهما احلولكت وتكاثفت . وهي تستمدّ نورها من قلب الحياة المحجبة أبداً عن البصر . والبصيرة تكون نيّرة ومظلمة . وظلمة البصيرة هي الظلمة الجديرة بمقتنا . وهذه لن تجد في لساني نصيراً ، ولا في قلمي مدافعاً . وأنا لو خُيّرت بين عين كفيفة وقلب بصير لاخترت القلب البصير . على أنّني أوثر أن أكون نيّر العين والقلب معاً . فالعين النيّرة هي الدليل الذي لا بدّ منه للتعرّف إلى الحجب العجيبة التي تتحجّب بها الحياة . والقلب النيّر هو وحده الذي يستطيع هتك تلك الحجب والوصول بنا إلى النور الأزلي الذي لولاه لما كان كون ولا كانت حياة .

حسنات النكبات

من حقّ الإنسان أن يعتزّ بما أحرزه حتّى اليوم من انتصارات باهرة في كفاحه مع الطبيعة . ومن حقّه كذلك أن يتطلّع إلى انتصارات أعظم وأوسع ما دام له عناده ودامت له الثقة بنفسه وبالسلاح الهائل الذي في حوزته . وليس من حقّه أن يعتزّ بانتصاراته فيحسب أنّه قد روّض الطبيعة إلى حد أن يتحكّم في طباعها وأطوارها ويبيت في مأمن من غدرها وانتقامها .

وها هي الطبيعة لا تنفكّ تذكّر الإنسان من حين إلى حين بأنّها ما برحت سيّدة الميدان . فقد يعنّ للأرض أن تتجشأ من تخمة في امعائها ؛ وللسماء أن تسترسل في البكاء لسبب من الأسباب ؛ وللنسيم أن يسكر فيركب رأسه ويمضي يعدو مترنحاً ذات اليمين وذات اليسار وبسرعة جنونيّة . وإذا الناس في ذعر ما بعده ذعر . فالبراكين والزلازل والأعاصير قد حوّلت مدنهم وقراهم أطلالاً ، وعبثت بزرعهم وضرعهم ، وبعثرت في طرفة الجفن جهود أجيال وأجيال . وإذا المساكن التي بنوها حصوناً ضدّ الموت تغدو فخاخاً لهم ومقابر . وإذا أقداسهم مسارح للنمل والفأر

والأفاعي ، وملاجيء للعناكب والبوم والخفاش .

حقـاً إنـها النكبة السوداء .

وقد يخطر للطبيعة في سنة من السنين أن تحنو حنوّاً فائقاً على حشرة بعينها ، كالجرادة — مثلاً — فتوفر لها جميع الأسباب للتزاوج والتوالد . وإذا بتلك الحشرة تغزو الجو فتحجب وجه الشمس ، وتحطّ على بقاع شاسعة من الأرض فتلتهم كلّ ما اخضرّ فيها . فلا عشبة تستقرّ عليها قطرة ندى ، ولا ورقة تهتز على غصن ، ولا شجرة يفيء إليها عابر سبيل . لقد أقفرت الأرض من الخضرة ولا إقفار وجه الأجرد من الشعر . وبات مَن عليها وما عليها من أكلة الأعشاب والبقول والحبوب والثمار في خطر الموت جوعاً . فوا ألف حسرتاه على الأيدي التي بذرت وغرست ، والعضلات التي تفصدت عرقاً ، والشفاه التي تمتمت التسابيح والصلوات ، والقلوب التي عقدت الآمال الكبار على الموسم . لقد أتلفت الجرادة في يوم أو أيّام ما عمله الإنسان في عام أو أعوام .

حقـاً إنـها الكارثة العمياء .

وهنالك الأوبئة تنتشر في بعض السنين انتشار النار في الهشيم . فتحصد الناس كما يحصد المنجل السنابل . لا فرق عندها بين كبير وصغير ، ووجيه وحقير ، وغنيّ وفقير . فيستغيث الناس ولا مغيث ، ولا تجديهم فتيلاً المباضع والعقاقير.

ويمضي الوباء يفتك فيهم إلى أن يمل ويضجر . فيكف من تلقائه . وليس من يدري كيف نما وامتدّ ، ولماذا وقف في امتداده عند حد .

حقـاً إنـّها النازلة الصمّاء .

ذلك قليل من كثير ممـّا يحلّ بالإنسان في خلال عمره القصير على الأرض . فيدعوه نكبات وكارثات ونازلات . ويحسب أن لا يد له فيه على الإطلاق . بل يخيّل إليه أن هنالك قدرة خفيّة ، غشوماً ، عمياء ، هوجاء ، ترقب حركاته من خلف ستار . حتّى إذا آنست منه غفلة مدت أصابعها الأثيمة إلى ما شاده من حصون وأبراج فتركته أنقاضاً فوق أنقاض ، وإلى مقدساته فحوّلتها رجاسات ، وإلى الروح في بدنه فاستلتها استلال الشعرة من العجين . ثمّ راحت تقهقه ملء شدقيها ، وتمدّ لسانها ساخرة به : « ها — ها . أرأيت أيـّها الغر المسكين إلى أين قادك غرورك ؟ إنّك بين يديّ لأحقر من فأر بين يدي سنّور ، أو من رغوة على سنام موجة عارمة . »

هكذا تبدو النكبات للسواد الأعظم من الناس . فهم لا يبصرون منها غير وجهها الأسود . في حين أن لكلّ نكبة وجهاً مشرقاً بالنور . وفي استطاعة أيّ كان أن يتبيّن ملامحه إذا هو كحل عينيه بشعاع من أشعة الفكر الذي يأبَى الانقفاص في حدود هذه الساعة من الزمان ، وهاته الفسحة من المكان .

فمن حسنات النكبات – جماعيّة كانت أو فرديّة – انّها توقظ الضمائر ، وتثير التعاطف بين الناس . وعلى الأخص في هذه الأيّام الّتي تصرّمت فيها المسافات ، وتقاربت آذان الأمم وشفاهها فلا تكاد صرخة تنطلق من أيّ بقعة من بقاع الأرض حتّى يسمعها الناس في جميع البقاع . وها نحن في لبنان ابتلينا في خلال شهور بنكبتين كبيرتين[1] . فتجاوبت أصداؤهما في كلّ أنحاء المعمور – وفي ساعات لا في سنين . وأخذت المعونات تتدفّق علينا من كلّ صوب . ولكم هزني منذ أيّام أن أتلقى رسالة من رجل في هونغ كونغ لا تربطني به أيّ صلة إلاّ أنّه قرأ كتابي « مرداد » في نصه الانكليزي ، وقرأ عن الهزة في لبنان ، فكتب يستفسر عن سلامتي ، وطوى كتابه على حوالة بمبلغ خمسة وعشرين جنيهاً استرلينيّاً لإغاثة المنكوبين .

حقّاً إنّ الإنسان أخو الإنسان أينما كان . واوضح ما تتضح هذه الأخوّة في النكبات الجماعيّة الّتي تأتينا من الطبيعة . أمّا النكبات الّتي ينزلها الإنسان بالإنسان ، كالحروب الساخنة والباردة ، فمن شأنها أن تفعل العكس بالتمام . إذ أنّها توغر قلب الإنسان على أخيه وتطرد منه الرحمة والأخوة لتنصّب القسوة والعداوة مكانهما .

---

١ فيضان نهر أبي علي في طرابلس والزلزال في الجنوب .

ومن حسنات النكبات أنّها تستفزّ همّة الإنسان لاتقاء شرورها ، وتدفعه على التفتيش عن أسبابها . ولعلّه ، لو أحسن البحث ، لأيقن أن له ضلعاً ويداً في كلّ ما يأتيه من داخل نفسه وخارجها . فليس من المعقول أن تقوم صلة ، مهما يكن نوعها ، بين إنسان وإنسان ، أو بين شيء وإنسان ، أو بين شيء وشيء إلاّ إذا كان في الاثنين دواع ظاهرة أو خفيّة تمهد لقيام تلك الصلة . وإذ ذاك فمن الخير للمنكوب أن يبحث في نفسه عن سبب نكبته قبل أن يبحث في البحر واليابسة والفضاء ، أو في ما يدعونه القدر والقضاء .

ومن حسنات النكبات كذلك أنّها تمحو الفوارق بين الناس . فلا أسود وأبيض ، أو أصفر وأحمر . ولا بوذي ومسيحيّ ومسلم ، أو مؤمن وملحد . ولا قويّ وضعيف ، وحاكم ومحكوم ، وسيّد وعبد ، وشريف ومنبوذ . بل الكلّ سواء في شرع الصاعقة والإعصار ، والبركان والزلزال ، والوباء والطوفان . ولو عقل الناس من تلقائهم لما كانوا في حاجة إلى الكوارث تلقي عليهم دروساً قاسية في المساواة .

ومن حسنات النكبات أنّها تعبث بجميع حصون الناس من ممتلكات ومراتب وسلطات كما يعبث الولد ببرج من الرمل أو قصر من الورق . فكأنّها بذلك تقول للناس : « ما بمثل هذه الحصون يليق بالإنسان أن يتحصّن . فهي للفناء ،

وهو للبقاء . كلوا ، واشربوا ، وانسجوا الملابس ، وابنوا المساكن ، وتزاوجوا وتناسلوا . ولكن حذار أن تحصروا أرواحكم في هذه كلّها ، أو في أيّ منها . فأنتم أقوياء لا بما تأكلون وتشربون وتلبسون . بل بما تحبّون . وأنتم خالدون لا بما تبنون وتنسلون بل بما تطمحون إليه من معرفة وحرية وانعتاق من الحصون » .

وحسنة أخرى أودّ تسجيلها للنكبات – ولعلّها الأهم . وهي أن النكبات ، إذا نحن أحسنّا فهمها ، تدلّنا بوضوح ما بعده وضوح على أن للإنسان غرضاً من وجوده على الأرض غير استثمار الأرض . ألا وهو استثمار القوى الكامنة فيه استثماراً يجعله سيّد الأرض ، عساه أن يقفز منها إلى السماء . وإلاّ لما دام صراعه المرير مع الأرض ملايين السنين ، ولابتلعته الأرض من زمان .

ومن شأن النكبات أن تشحذ القوى الكامنة في الإنسان ، وأن تهديه إلى أنصاره في صراعه مع الأرض . فلا بدّ لكلّ مصارع من أنصار وأخصام . ومَن هم أنصار الإنسان غير إخوانه الناس ؟ ومن هم أخصامه غير العناصر التي تتحكّم فيه وتسلبه الكثير من ثمرات جهاده في مثل رفة الطرف ؟ أفليس من الجنون المطبق أن ينصر الإنسان أخصامه على أعوانه ؟

ذلك ما يفعله الإنسان بالتمام عندما يحارب أخاه الإنسان

في سبيل ذراع من الأرض ، أو بئر من الماء ، أو حفنة من التبر ، أو أيّ مغنم آخر من مغانم البحر والبر والجو . إنّه إذ ذاك ليفتك بأعوانه ويشدّ أزر أخصامه . وهكذا يمكّن للأرض في عنقه وروحه وأعناق أعوانه وأرواحهم . بدلاً من أن يتكاتف وإيّاهم على تحطيم نير الأرض ، والانعتاق من ربقتها إلى الأبد . وتلك لعمري هي الخيانة الكبرى .

أجل إنّ للنكبات حسنات كثيرات . فهل من عيون تبصر ، وآذان تسمع ، وعقول وقلوب تفهم وتعي ؟ . .

همجيّة المتمدّنين

الهمج ، في عرف القاموس ، هم الرّعاع من الناس ، أو الأخلاط ، أو الهَمَل الذين لا يربطهم نظام . أمّا في عرفي فهم جميع الذين يشوّهون الجمال في الأرض بالقول أو بالفعل ، والذين يمتهنون حرمة الحياة وقدسيتها في أنفسهم وفي الكائنات من حواليهم في السرّ أو في العلانية . سواء أكانوا من السوقة والغوغاء والأوباش ، أم من حاملي الرتب العلميّة الرفيعة ، والألقاب المدنيّة الطنّانة ، أم من ذوي الأحساب العريقة ، والسلطان البعيد ، والجاه العريض ، والثروة الطائلة .

والجمال لا يقتصر — كما يوهمك اليوم بعض الصحف وبعض الفنون — على شكل المرأة أو الرجل . بل هو يطلّ عليك دائماً من كلّ ما في الأرض والسماء من أشكال وألوان ، وحركات وسكنات ، وخلجات وأصوات . مثلما يطلّ عليك أحياناً من لفتة تلتقطها عينك من عين إنسان ، أو من كلمة عابرة تنفتح لوجدانك عن فكرة أو عن عاطفة تلقى هوًى في نفسك .

إن عُصفوراً على فنن يغنّي لأنثاه الراخمة على البيض في

العشّ لصورة في منتهى الروعة والجمال . فما قولك بكائن يحمل لقب إنسان يردي ذلك العصفور بخردقة من بندقيته لينتفه بعد حين ويشويه على النار ويلتهمه مع قدح من العرق ، وذلك باسم ما يدعونه « سبورت » وتحت ستار الترفيه عن النفس والجسد ؟ ألا بئسَ الترفيه وبئسَ « السبورت » ! إنّهما الهمجيّة في أحطّ مظاهرها . وذلك الإنسان همجيّ وإن يكن رئيس جامعة ، أو مدير بنك ، أو وزيراً في الدولة .

وإن سرباً من الغزلان سارحاً في الصحراء يبغي الكلأ أو يطلب الماء لمشهد فيه من الجمال ما لا يوصف . فما قولك بجماعة من الناس تفاجىء ذلك السرب بسيارة — أو بقافلة من السيارات — فتطارده بالحديد والنار وتمعن في مطاردته حتى تفرّقه شذر مذر ، فيرتمي من يرتمي منه على الأرض إعياء ، ويموت من يموت بالرصاص ، ويتشتّت الباقي فلا يدري الرفيق أين رفيقه ، ولا الأمّ أين ولدها ، ولا الولد أين أمّه ؟ وكلّ ذلك باسم « السبورت » ! أبعد هذه الهمجيّة همجيّة ؟

ما أكثر الهمج « المتمدّنين » ! وما أكثر ما يرتكبونه من الجرائم ويأتونه من البشاعات باسم « السبورت » أو الترفيه عن النفس !

هنالك الذين يتهافتون بالمئات والألوف ، ومن جميع

الطبقات . ويدفعون من جيوبهم وأوقاتهم بسخاء ليشاهدوا رجلين على دكّة عالية يتلاكمان بضراوة ما بعدها ضراوة . حتّى إذا سدّد أحدهما إلى رفيقه لكمة لقّمته الأرض ولم يستطع القيام من بعدها في خلال ثوانٍ معدودات جنّ جنون الحاضرين ، وعلا تصفيقهم وصفيرهم وصياحهم . فكأنّهم جماعة من القردة في غابة من مجاهل القارة السوداء . وفي طرفة العين يصبح صاحب اللكمة الحاسمة « بطلاً » يذاع اسمه في طول الأرض وعرضها ، — بالبرق والراديو والتلفزيون . ثمّ لا تلبث الصحف أن تحمل رسمه — أو رسومه — إلى قرائها . ولا تسل عن الأموال التي تتدفّق عليه . كلّ ذلك وفي الأرض ما فيها من الجياع والعراة والمشرّدين ، والذين بغير مأوى ، والذين تقطّع أوصالهم الآلام ولا من مؤاسٍ أو معين . أفليس هذا كذلك مظهراً من مظاهر همجيّة المتمدّنين ؟

وهنالك الذين يتوافدون بالألوف كذلك ، ويتدافعون بالمناكب ، وينفقون الوقت والمال غير آسفين ليشهدوا صراع إنسان وثور ! أمّا الإنسان فمسلّح بالحراب ، بالإضافة إلى دهائه وقوّة ساعديه ورجليه . وأمّا الثور فلا سلاح له غير قرنيه وجلده وعضلاته . حتّى إذا ظفر الإنسان بالثور فأثخنه بالجراح أو صرعه بطعنة نجلاء في قلبه ، هلّل القوم وكبّروا ،

وهاجوا و ماجوا ، ورفعوا « البطل » على الأكف وأغدقوا عليه الإعجاب والهدايا . وإذا ظفر الثور بالإنسان فمزّقه بقرنيه ، وأزهق روحه من بين جنبيه ، افرنقعوا وليس في عيونهم دمعة ، ولا في قلوبهم غصّة . بل لعلّهم ينحون باللائمة على الذي مات لأنّه لم يحسن الهرب أو لم يحسن الضرب . . . إنّهم همج وإن كانوا من علية القوم .

همج هم الذين يختصمون في أمر من الأمور فيلجأون في فضّ خصامهم إلى قواذع الكلم وبذيئه يتدفّق من أفواههم تدفّق الأقذار من مجاريرها . أو يحتكمون إلى الأكفّ والعصيّ والمدى ينهالون بها بعضهم على بعض غير آبهين بعظام تتكسّر ، وجلود تتمزّق ، ودماء تخضّب الوجوه والتراب ، وصرخات تصطك لها آذان الإنس والجنّ .

أمّا الهمجيّة الهمجيّة فهي الحرب من غير شكّ . ففي الحرب تلقي المدنيّة عن وجهها قناعها البرّاق ، الخدّاع . وإذا بها أنياب وبراثن ومخالب لا يهيمن عليها عقل ولا يكبتها وجدان . وإذا المقاييس البشريّة كلّها تنقلب رأساً على عقب . فالبطل البطل هو الذي يدمّر لا الذي يعمّر ، والذي يميت لا الذي يحيي ، والذي يكره لا الذي يحبّ . في الحرب تبدو الأمانة خيانة ، والمروءة خنوثة ، واللين جبناً ، والصفح جريمة . وينطلق الموت يتعقّب الحياة في كلّ مكان . فكأنّها

دخلت الأرض بدون جواز سفر ، فوجودها يزعج الأرض والموت بالسواء .

ألا فليخجل « المتمدّنون » بمدنيّتهم . فلو أنا شئت أن أعدّد همجياتهم لما انتهيت. من ذلك تجنيهم على الجمال الذي لا تُحسّه العين والأذن ، ويحسّه العقل والقلب والخيال. إنّه الجمال الذي يضفي على الحياة روعة وقدسية وجلالاً ، ويقيم لها أهدافاً تتضاءل دون جلالها جميع حاجات اللحم والدم .

فليس من العبث أن يجمع الناس في كلّ مكان وزمان على محبّة العدل والحرية وكره الظلم والعبوديّة . لأنّ العدل والحرية جميلان والظلم والعبودية قبيحان . وإذ ذاك فالظالمون والمستبدون همج لأنّهم يشوّهون جمال العدل والحرية .

جمال هو الصدق وبشاعة هو نقيضه الكذب . فهمج هم الكاذبون .

جمال هي العفّة ، وبشاعة هو الفسق . فهمج هم الفاسقون .

جمال هي الدعة ، وقباحة هي الكبرياء . فهمج هم المتكبّرون .

همج هم الماكرون والمحتكرون والمبغضون والنمّامون والمغتابون والبانون أمجادهم على مذلّة الغير .

همج هم الذين يتلفون خيرات الأرض والسماء بطراً وتعسّفاً واعتباطاً غير مبالين بإخوة لهم يسعون وراء الرغيف فيهرب منهم الرغيف ، ويجدّون في طلب القميص فلا يظفرون بغير الأسمال ، ويفتّشون عن سقف يظلّل رؤوسهم فلا يجدون غير القبّة الزرقاء .

وهمج هم الذين يتباغضون ويتناحرون باسم الدين . فهؤلاء ، وإن وسعت عقولهم جميع ما في كتب الفلسفة والدين ، فقلوبهم فراغ من الله الذي هو الجمال المطلق ، والمحبّة المتناهية ، والعدل الذي لا يوصف ، والنظام الذي لا يُدرَك . إنّه القدرة التي بها تتماسك أجسادهم وأرواحهم وجميع الكائنات التي لا حصر لأعدادها ولا حدود لتخومها . فكيف يسوّغون لأنفسهم أن يجعلوه كلمة تلوكها ألسنتهم ، أو حربة يطعنون بها قلوب إخوانهم ، أو قذيفة من البغض يحرقون بها أرواحهم وأرواح من يتوهمونهم أعداءهم ؟ إنّهم لقوم همج ، وقوم كافرون .

لا . ليس يليق بأبناء هذه المدنيّة أن ينعوا على بعض القبائل المتأخرة همجيتها . فليتفقّدوا « مدنيتهم » أوّلاً !

بين الحق والقوة

يتكلّم الكثير من الناس عن الحقّ والقوّة كما لو كانا في تنافس أبدي على السلطان في الأرض . فآناً يصرع الحقّ القوّة . وآونة تصرع القوّةُ الحقّ . وحتى اليوم ما ظفر جانب من الجانبين ظفراً لا غبار عليه ولا خذلان بعده . فالحرب بينهما أبداً سجال .

وهنالك الذين يجعلون من الحقّ وصيفة للقوّة أو ظلاً ملازماً لها . فحيثما كانت القوّة كان الحقّ بجانبها . « الحق للقوّة » . — ذلك هو الدين الذي به يدينون وعلى هديه يسيرون . وإن أنت تجاسرت وسألتهم : « وكيف يكون الحقّ للقوّة ؟ » أجابوك بازدراء الفاهم ، وثقة العالم ، وكبرياء الواقف على ظواهر الأمور وبواطنها : « ألعلّك أعمى ؟ أما ترى السمكة الكبيرة تزدرد الصغيرة ، والأمّة القويّة تتحكّم في الضعيفة ؟ أما ترى الذئب يفترس الحمل ، والصقر يمزّق العصفور ؟ وما كان للسمكة الكبيرة والأمة القويّة ، ولا كان للذئب والصقر مثل ذلك الحقّ لولا القوّة . فالحقّ للقوّة والقوّة وحدها هي الحقّ » .

ويا ليت القائلين هذا القول يسألون أنفسهم : ما هي القوّة ؟ وأين هي ؟ ولمن هي في عالم يتنازعه الموت والحياة بغير انقطاع ؟ فهو أبداً يموت ليحيا ، ويحيا ليموت .

أهي القوّة أن تكونَ لك رقبة غليظة وعضلات مفتولة ؟ ولكن ولداً صغيراً يسوق الثور ، ويضع على رقبته النير ، ويكرهه على جرّ المحراث في الحقل . وأين رقبة الولد من رقبة الثور ، وعضلاته من عضلاته ؟

أم هي القوّة أن يكون لك الدهاء فتحمل من هم أقلّ دهاء منك على قضاء حاجتك،سواء أكانوا من طينة البشر أم من طينة الحيوان ؟ ولكن جرثومة أصغر من أن تبصرها عينك تستطيع أن تنزل بك أوجاعاً لا تطاق ، وأن تحملك في النهاية إلى القبر . أنقول إن تلك الجرثومة أكثر منك دهاء وأقوى منك عضلاً ؟

أم هي القوّة أن تكون لك الأملاك الشاسعة ، والأموال الطائلة ، والسلطة الواسعة ؟ أما سمعت بالذين افتقروا من بعد وفرة وغنى ، والذين ذلّوا من بعد عزّ وسلطان ؟ أفما سمعت بتيجان تدحرجت عن رؤوس ، ورؤوس تدحرجت عن أكتاف ؟ ولا سمعت بالزلازل ، والأوبئة ، والثورات والحروب وما إليها ؟ ثمّ أما سمعت بالموت ؟ فأين من قوّة هذه كلّها قوّة المال والسلطان ؟ أنقول ، إذن ، إن القوّة

للزلزال والوباء والثورة والحرب والموت ، وإن قوّتهـا هي الحقّ ؟

وإن أنت تغاضيت عن هذه كلّها ، فما قولك بالحزن والهمّ والقلق والخوف والشكّ وتبكيت الضمير ؟ وهذه يضعف أمامها أقوى الأقوياء ، وأغنى الأغنياء ، وأدهى الدهاة ، وأعظم السلاطين ، فأين قوّتهم ؟ وأين حقّهم ؟

لا يا صاحبي . ليست القوّة للسمكة الكبيرة دون الصغيرة ، ولا للأمّة القويّة دون الضعيفة ، ولا للذئب دون الحمل ، ولا للصقر دون العصفور . إنّها للحياة الّتي منها وبها وفيها كلّ حياة — كلّ منظور وغير منظور . وهي تعطيها لمن تشاء ساعة تشاء . وتستردّها ممّن تشاء ساعة تشاء . فالحكم لها أوّلاً وآخراً . والقوّة لها أوّلاً وآخراً . وحكمها عدل . وقوّتها حقّ . ولا نزاع أبداً بين قوّتها وحقّها . وقوّتها أبداً في متناول يديك ، لو كنت تعرف من أين تتناولها وكيف .

إنّ الذين أضاؤوا مشعل الهداية للإنسانيّة فاعتبرتهم بحقّ معلميها ، وما برحت تجلّ أسماءهم وتقدس ذكراهم ، ما كانوا ذوي رقاب غليظة وسواعد مفتولة . ولا كانوا من ذوي الصوالجة والتيجان ، والأملاك المترامية ، والأموال المكدّسة في المصارف والصناديق . وكانوا ، مع ذلك ، أقوياء . وقوّتهم كانت حقّاً لأنّهم استطاعوا أن يلجوا قلب

الحياة حيث القوّة التي منها كلّ قوّة ، والحقّ الذي منه كلّ حقّ . وأنت لو سألتهم عن القوّة ما هي لأجابوك :

القوّة هي أن تغالب نفسك فتغلبها . ومغالبة النفس إنّما تعني تنقية الفكر والقلب من كلّ شهوة ونيّة تضعفك وتؤذيك فتضعف بالتالي سواك وتؤذيه . لأن حياتك مرتبطة أوثق الارتباط بحياة غيرك . فالغش ضعف وأذى لك وللناس ومثله الطمع والحقد والبغض والفسق والكذب والنميمة وجميع أخواتها من الشهوات والنيات السود . وعلى عكسها الصدق والقناعة والعفّة والصفح والمحبّة ، فهذه كلّها قوّة وخير وبركة لك ولإخوانك الناس . . .

وهي القوّة أن تعرف أن حياتك لم تبتدىء ساعة ولدت ، ولن تنتهي ساعة تموت . بل هي أزليّة أبديّة مثلما الحياة التي منها انبثقت أزليّة أبديّة . وإذ ذاك فالموت عندك عرَض من أعراض الحياة . ومثله الولادة . فلا تغتمّ لذلك . ولا تبتهج بهذه . بل تكون أقوى من أن يهزّك الاثنان .

وهي القوّة أن تعرف أنّك تعيش في عالم محكم الأسباب والنتائج . فما من كلمة أو حركة ، وما من نيّة أو شهوة ، وما من فكرة أو نظرة إلاّ ونتائجها مرتبطة بها ارتباط النور والحرارة بالنار . وما يأتيك من خير أو شرّ ليس سوى نتيجة لازمة لما تقوله وتفعله ، وما تنويه وتشتهيه ، وما تفكّره

وتتخيّله عن وعي منك وعن غير وعي . ومهما حاولت أن تتهرّب من تلك النتيجة فهي لاحقة بك لا محالة مهما تباعد بها الزمان . وإليك هذا المثل :

يحكى أن بعض مقدمي البدو حضر على سماط بعض الأمراء . وكان على السماط حجلتان مشويتان فنظر إليهما البدوي وضحك . فسأله الأمير عن ذلك فقال : « قطعت الطريق في عنفوان شبابي على تاجر . فلمّا أردت قتله تضرّع ، فما أفاده تضرّعه ، فلمّا رأى أني قاتله لا محالة التفت إلى حجلتين كانتا في الجبل وقال : اشهدا عليه انّه قاتلي . فلمّا رأيتُ هاتين الحجلتين تذكرت حمقه . » فقال الأمير : « لقد شهدتا » ثمّ أمر بضرب عنقه .

و إذ ذاك فالقوّة هي في تفهُّمك قانون السبب والنتيجة والسير معه لا ضدّه . لذلك وهبتك الحياة الفكر والخيال والوجدان والإرادة ، حتّى إذا أحسنت استعمال هذا السلاح الهائل فهمت القانون فأصبحت سيّده بدلاً من أن تكون عبده . وأصبحت أبداً في جانب الحقّ الذي لا يُقهر ، فما قلت كلّما غُلبت على أمر من أمورك : لقد غلبتني القوّة . بل قلت : لقد غلبني جهلي لقوّة حقي .

هي القوّة أن تؤمن بأنّ للحياة هدفاً من وجودك . فهي تُسرّ بأن تتمثّل فيك كاملة ، صافية ، مبدعة ، وبغير حدّ.

وإذ ذاك فالذي يدعوه الجهلاء قدراً غاشماً ليس في الواقع غير النظام الذي سنّته لك الحياة لتنهض بك من غيبوبة اللاوعي إلى يقظة الوعي . ومن الجهل إلى المعرفة . ومن الاتكالية إلى الحرية . ومن البدايات والنهايات إلى اللابداية واللانهاية .

وهي القوّة ، وقد آمنت ذلك الإيمان ، أن ترى نفسك في كلّ إنسان وكلّ شيء. لأنّك تحيا وإيّاهم بنظام واحد ولغاية واحدة . فهم رفاقك وأعوانك في الطريق إلى الهدف وأنت رفيقهم وعونهم . وإذ ذاك فأنت تخون نفسك كلّما أحببتها وأبغضتهم . ولن تصدق مع نفسك حتى تحبّ الكون محبّتك لنفسك .

وأنت متى بلغت قدس أقداس المحبّة وجدت نفسك أفسح من المكان ، وأبقى من الزمان ، وأقوى من الموت . وعندئذ تعرف أن المحبّة وحدها هي القوّة التي لها الحقّ ، والحقّ الذي له القوّة . وأن كلّ قوّة غير قوّتها ضعف . وكلّ حقّ غير حقّها باطل .

الذوق الرفيع

لولا الذوق لكانت الحياة بغير قيمة . فهو الذي يحبب إلينا أشياء وأشياء . وينفرنا من أشياء وأشياء . والذي نحبّه يحمل إلينا الشعور بالسرور والانشراح . والذي ننفر منه لا يثير فينا غير الكدر والانقباض . ولأنّنا نؤثر السرور والانشراح على الكدر والانقباض بات لزاماً علينا أن نولي أذواقنا من العناية فوق ما نوليه أجسادنا ، لعلّنا نبلغ بأذواقنا ذلك المستوى الرفيع الذي تتضاءل عنده ، أو تتلاشى ، جميع الأشياء والحالات التي تسبب لنا الكدر والانقباض ، وهكذا نستمتع بأعمارنا إلى أقصى حدود الاستمتاع .

وكيف نعتني بأذواقنا ؟ وهل هي قابلة للصقل والتفتّح والنموّ ؟

من غير شكّ . فالذوق قابل للصقل والتفتّح والنموّ مثلما هو العقل — سواء بسواء . والذوق لا يقتصر على ما يتذوّقه اللسان — ذلك أدنى دركاته على الإطلاق . فللعين كذلك ذوقها . ومثلها الأذن والأنف واليد . وللقلب ذوقه . ومثله الفكر والخيال . ومن هذه الأذواق كلّها يتكوّن الذوق

الموحد الذي يميز الإنسان من الإنسان . فتقول في فلان انّه يملك ذوقاً في منتهى الرهافة ، وفي جاره إنّه بغير ذوق ، أو بذوق في منتهى السماجة .

وإنّه لمن الغرابة بمكان أن يكون للذوق مثل هذا الشأن الجليل في حياة الناس وأن تراهم ، مع ذلك ، منصرفين عن العناية به إلى العناية بأجسادهم وعقولهم تاركين أمره إلى الظروف تربيه كيفما اتفق ، أو تنحطّ به إلى ما دون ذوق الحيوان . فالمدارس في كلّ مكان تعجّ بالطلبة ، والمعابد بالمصلّين . ولكن الذين يخرجون من تلك وهذه لا يخرجون منها وهم أوفر نعمة ، وأشدّ اغتباطاً بالوجود منهم قبل أن دخلوها . وذلك يعني أن المدرسة والمعبد لا يقومان بواجبهما في صقل أذواق الناس وتفتيحها وإنمائها . فما أكثر ما ترى بشراً يخرجون من المعاهد العلميّة العالية حاملين أوراقاً تشهد لهم بأنّهم دكاترة في الفلسفة ، أو في الحقوق ، أو في الهندسة ، أو في أيّ فرع آخر من فروع العلم والأدب . وإذا بهم في حياتهم اليوميّة برابرة وأحطّ من برابرة من حيث تذوّقهم لمفاتن الحياة وجمالاتها .

وما أكثر ما ترى في هذا الشرق مصلّين يخرجون من معابدهم فلا يتورّعون عن أن يبللوا جدرانها بنفاوات من أجسادهم . إنّها البشاعة التي تذبح الذوق من الوريد إلى الوريد

والتي تحطّ بالإنسان إلى ما دون مستوى الحيوان .

تقول : ولكن الناس ، في مشارق الأرض ومغاربها ، جادّون في صقل أذواقهم . وها هي فنونهم الكثيرة خير شاهد على ذلك . والفنون ، على أنواعها ، ما وجدت إلاّ لتزيد الناس شعوراً بالجمال وتحسّساً لما يخلقه الجمال في نفوسهم من متعة وغبطة . وكنتَ على حقّ في ما تقول لو أن أرباب تلك الفنون كانوا يتجملون بالجمال الذي يخلقون . ولكنهم ، كغيرهم من الطينة البشريّة ، ينافقون ويفسقون ويحسدون ويمكرون ويمارون ويتذلّلون ويكبرون ، فما نفعهم من الجمال الذي يبدعون ما داموا يرتفعون بذوقهم ذراعاً وينحطون فراسخ ؟

ليس الذوق في أن تلبس ثياباً في منتهى الجودة من حيث قماشها وتفصيلها وانسجام ألوانها . بل الذوق أن تكون كلّ دقيقة من حياتك في غاية الجودة من حيث ما تعمل فيها وما تفكر ، ومن حيث انسجامها مع من حولك وما حولك من الناس والأشياء والأحداث . فأنت لو لبست أفخر الملابس ، وتحلّيت بأنفس ما في مخازن العالم من جواهر ، لبقيت في واد والذوق الرفيع في واد ما دام في قلبك غشّ وفي فكرك فساد . وكنت أرفع ذوقاً ، وبالتالي أحسن حالاً ، لو أنّك لبست المسوح ولكن بقلب نقيّ من الغشّ ، وفكر طاهر من الفساد .

كذلك ليس الذوق في أن تفرش بيتك بأجمل الرياش وأن تزينه بأندر التحف الفنيّة . فما دمت تشتم خادمك وتصفع ابنك أو ابنتك ، وتخاصم زوجك ، وتكيد لجارك ، وتشتهي الموت لعدوّك ، فأنت لا تتحسّس الجمال الذي لا نصيب له على الإطلاق في الشتيمة والغضب والخصام والكيد والتشفي بشقاء الغير . وإذ ذاك فأنت ، كذلك ، في واد والذوق الرفيع في واد .

وليس الذوق في أن تحسن القيام بشتّى اللياقات لدى السيدات ، وأن تكثر من الكلام المعسول والحركات الأنيقة في المجتمعات ، وأن تحني هامتك للكبير وتصعّر خدك للصغير . أو أن توارب وتداجي وتتظاهر بما ليس فيك ، فتقول وتفعل غير ما تحسّ وتضمر ، وتضمر وتحسّ غير ما تقول وتفعل . فالجمال يأبَى إلاّ مخالفة الحقّ ومخاصمة الباطل . وإذ ذاك فكلّ ذوق يستأنس برفقة الرياء والتدجيل ، والذل والكبرياء ، هو ذوق فاسد ، باطل .

لعلّ أغرب ما يواجهك من الناس هو أن تراهم يبالغون في العناية بأجسادهم ، كلّ على قدر معرفته واستطاعته . فهم لا يبخلون عليها بالغذاء والكساء ، والصابون والماء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . أمّا الميول والشهوات والنزوات التي تسكن أجسادهم فقلّما يلقون إليها بالاً — بل إنّهم يتركون

لها الحبل على الغارب — وهذه قد تكون من الجوع والعري والقذارة بحيث لو كان لها شكل ورائحة لتقززت من هول منظرها العيون ، وسدت دونها الأنوف . كذلك قل في مساكن الناس . فهذه ، في الغالب ، تنال قسطاً وفيراً من اهتمامهم في كلّ يوم من أيّام السنة . وهنالك الذين يأتون بالمهندسين والاخصائيين ليساعدوهم على اختيار أثاث بيوتهم وترتيبه في شكل تطمئن إليه العين ، ويسرّ به القلب . حتّى إذا نظرت إليه قلت : ذلك هو منتهَى الذوق . ولكن سكان تلك البيوت قلّما يذكرون أن بيوتهم لأضيق بكثير من أن تتسع وحدها لسكناهم . فالحي الذي يقطنون هو مسكنهم كذلك . ومثله المدينة ، ثمّ البلاد ، ثمّ الأرض كلّها ، ثمّ السماء بمختلف أفلاكها وشاسع مسافاتها . إن المسكونة بأسرها هي مسكن الإنسان .

فما أحرانا ، لو كان لنا الذوق الرفيع ، أن نعتني بمسكننا الأكبر والأوسع عنايتنا بمسكننا الأصغر والأضيق . فنحرص على نظافة قريتنا أو مدينتنا حرصنا على نظافة بيوتنا . ثمّ نحرص على سلامة وجمال الأثاث الذي اختاره ورتبه لنا في الأرض التي هي مسكننا الأوسع فنان أين من فنّه جميع فنون الناس ، وذوق أين من لطفه ودقته ألطف أذواق البشر وأدقها ؟ إلاّ أن معظم الناس ، وإن بدوا على شيء من الذوق داخل بيوتهم ،

ينقلبون إلى برابرة خارج تلك البيوت . فبينا هم يأبون أن يروا قشة أو ورقة أو ذرة من الغبار على كرسي من كراسيهم ، وبينا هم يخشون على ذلك الكرسي أقلّ لطمة أو خدش إذا بهم لا يحفلون بالقذارة والشناعة في قراهم ومدنهم ، وإذا بهم ، إذا خرجوا في نزهة إلى البرية ، يعيثون بها فساداً . فيحوّلون المرجة الخضراء مزبلة ، ويهشمون الأشجار ، ويقتلون الأطيار ، ويقذفون بأقذارهم في الينابيع والأنهار — وليس بينهم من يحسب ان في ذلك تجنياً على الجمال ، وبالتالي على الذوق الرفيع الذي لا يعيش إلاّ مع الجمال وبالجمال .

لا يكون الذوق الرفيع إلاّ حيث تكون التّربية الجماليّة الرفيعة . وهذه قلّما يهتمّ بها معلّم في مدرسة ، أو واعظ في هيكل ، أو والد أو والدة في بيت ، وأنت لن تدركها حتّى وإن أتقنت كلّ فنون الناس . ولن تجد إصبعاً تدلّك على الجمال نظير ما يدلك السهم على الطريق ، وإبرة الملاح على القطب . فالجمال موطنه في نفسك . هناك سريره ، وهناك غذاؤه ومأواه . فعلى قدر ما تتسع نفسك وتصفو يتسع شعورك بالجمال ويصفو . واتّساع النفس يعني فتح أبوابها للكائنات التي تحسبها خارجة عنها كيما تصبح بعضاً منها . فكلّما ازدادت الكائنات التي تشعر بأنّها في نفسك ومن نفسك ازدادت محبتك لها . إذ أن محبّة النفس هي العامل الأعظم

والأهم في الوجود .

وأنت متى اتّسع نطاق محبّتك اتّسع نطاق الجمال في حياتك . لأنّك لا تستطيع أن ترى قباحة في ما تحبّ . ولا جمالاً في ما تكره . وعلى قدر ما يتّسع نطاق الجمال في حياتك يتّسع ذوقك ويتسامى . فالذوق الرفيع لا يكون إلاّ حيث يكون الشعور بالجمال الرفيع .

قليلاً من الصمت والتأمّل

أما ابتليت يوماً بثرثار يحكم عليك الحصار ثمّ يأخذ يمطرك وابلاً من الكلام في أمور لا تخطر لك في بال ولا تهمك بقليل أو كثير ؟ أما تمنيت لو تنشق الأرض فتبتلعه — أو تبتلعك — لتنجو من ثرثرته ؟

أمّا أنا فقد عرفت رجلاً — هو اليوم في ذمّة ربّه — دعاه أحد الظرفاء « الهواء الأصفر » . وكان الناس في الواقع ، يتهرّبون منه تهرّبهم من الهواء الأصفر . ذلك لأنّه كان يملك لساناً أشبه ما يكون بما تدعوه العامة « طرطاق الطاحون » . وطرطاق الطاحون — إن كنت تجهله — كناية عن خشبة تلامس بطرفها الأسفل حجر الرحى الأعلى فلا تنفك توتقص وتطقطق ما دامت الرحى تدور .

لقد كنت أتعوّذ بالشيطان كلّما التقيت « الهواء الأصفر » على حين غرة . وكذلك كان يفعل جميع الذين عرفوه . فقد كان لا يرضى عند اللقاء إلاّ بالمصافحة الأخويّة « الحارة ». وإلاّ بضغط اليد ضغطاً شديداً لحدّ الألم . حتى إذا اطمأنّ إلى أنّك أصبحت في قبضته الفولاذيّة راح يستفسر أوّلاً عن

صحتك الغالية وصحة عيالك ، وعن أشغالك وكل حركة وسكنة من حركاتك وسكناتك . ثمّ ينتقل إلى الطقس فيتأفّف أو يتلمّظ ، ويذكرك بما كان عليه الطقس منذ سنة في مثل ذلك اليوم ، ويتنبأ لك بما سيكون عليه بعد سنة . ثمّ لا يلبث أن ينتقل بسرعة البرق إلى أخبار السوق ، أو أخبار السياسة من محليّة وعالميّة . فيدلي إليك بآرائه « القيّمة » في اختلال الميزان التجاري والسياسي ، وفي كيفيّة القضاء على ذلك الاختلال . ثمّ يفتح لك كشكولاً لا نهاية لما يحتويه من أخبار بشر تعرفهم وبشر تجهلهم . فلا يتوقف طرفة عين ليفسح لك المجال لقول « نعم » أو « لا » فكيف بإبداء عذر من الأعذار ؟ وقد يجري كلّ ذلك على قارعة الطريق حيث الزحام على أشدّه ، وفي ساعة قد تكون فيها مسرعاً إلى موعد مهم ، أو إلى قضاء حاجة تتوقف عليها حياتك .

ليس كلّ الناس في ثرثرتهم ذلك « الهواء الأصفر » . ولكن قلّ بينهم من لا يماشيه أشواطاً بعيدة أو قريبة . فالثرثرة تبدو كما لو كانت الداء المستحكم في كلّ ذي لسان لم تعقله عن الكلام عاهة من العاهات . حتّى كأن معظم الناس يعتقدون أرسخ الاعتقاد أن الحياة ما وضعت الألسن في أفواههم إلاّ ليروضوها على الكلام كلّما أتيحت لهم آذان لسماع ما به يثرثرون . وكأنّهم إذا واتتهم الفرصة للكلام ولم يتكلّموا ،

حسبوا سكوتهم تجديفاً على القدرة التي أسبغت عليهم نعمة الكلام ، أو جحوداً لفضلها . بل إن من الناس من يثرثر وحده إذا لم يوفق إلى سامع أو شريك يثرثر له أو عليه .

حيثما اجتمع اثنان أو أكثر من الناس كان أخشى ما يخشونه دقيقة من الصمت . فالصمت ، في شرعهم ، لا يليق إلاّ بالمآتم والمعابد . أمّا في ما عدا ذلك فالكلام هو سيّد المقام — لا فرق أكان الكلام لآلىء أم أصدافاً ، وكان آية في الحكمة أم غاية في الغباوة . فالمهم أن يدور الحديث من لسان إلى لسان دونما انقطاع . والمهم أن يبدو الحضور كما لو كانوا في منتهى البسط والسرور . لذلك فالمضيف البارع البارع هو الذي يحسن انتقاء ضيوفه من رجال ونساء يتقنون فن الثرثرة في كلّ موضوع تحت الشمس ، أو الذي ، إن تلكأ ضيوفه عن الكلام ، أسعفهم بسحر من لسانه ، فأطلق ألسنتهم كلّما تماهل الحديث أو بات في خطر التلاشي .

لعلّك يا قارئي دعيت — أو دعوت — ولو مرّة ، إلى حفلة من تلك الحفلات التي راج سوقها في الزمان الأخير رواج الحشيش والمورفين والكوكايين والهيروين عند الذين يأبون ، وهم ما يزالون رهائن الأرض ، إلاّ أن يقتحموا الجنّة في غفلة من جبريل أو عزريل . وأعني حفلة « كوكتيل ». والكلمة تعني ذنب الديك . وقد دعوها كذلك لأن ما يقدم

فيها من مشروبات روحيّة يمزج من أصناف وألوان متعدّدة . فكأنّه ذنب الديك بألوانه المختلفة ، الزاهية .

لقد بات من التقاليد المرعية في مثل هذه الحفلات ، إلى جانب تعدّد ألوان المشروب ، أن تتعدّد كذلك ألوان المأكول وألوان المدعوين . فالحفلة من بدايتها إلى نهايتها « كوكتيل » هائل من الآدميّين المتصافحين بالأيدي ، المتدافعين بالمناكب ، المنعقدين حلقة هنا والمنفرطين هناك ، والمتهافتين في النهاية على كؤوس يجرعونها وقصاع يملأونها شطائر ولحوماً وحلويات وفاكهة ليفرغوها في أجوافهم ، تساوقها في مضغها وانحدارها إلى الجوف « سمفونيات » من اللغط والهرج ولا « سمفونيات » جماعة من القردة في غابة من غابات الكونغو . إنّها الثرثرة وقد بلغت ذروة الفراغ — ذروة اللاشيء .

أما ترى اننّا ، في ظلّ هذه المدنيّة « المباركة » ، نعيش في « كوكتيل » مستمر من الهرف والهذر واللغط والثرثرة ؟ فأنت ، أنّى اتجهت ، وجدتك في خضمّ من الكلام متلاطم الأمواج . سواء في ذلك البيت والمدرسة ، والمعبد والمعمل ، والسوق والمسرح ، والصحف ودورها ، والإذاعات ودورها ، والمجالس النيابيّة ، والمحاكم المدنيّة والدينيّة ، والأندية على أنواعها ، وكلّ أصناف الأبواق التي يثرثر بها الناس للناس . وأنت ، لو كان لك أن تصفي هذا الكلام ، لما ظفرت منه

بصفوةٍ تنقع غلّة قلبك وفكرك . فهو ، في الغالب ، كالماء الأُجاج : كلّما عببت فيه اشتدّ بك الظمأ . وهو كالأكل في الحلم ، يوهمك أنّك آكل ولكنّه يترك جوفك فارغاً ولا يزيد ذرة في لحمك أو قطرة في دمك .

المفروض في الكلام أن يكون تنفيساً عمّا ازدحم في القلب من مشاعر وأشواق ، وفي الفكر من تصوّرات وتأملات . أو أن يكون تعبيراً عن حاجة في النفس أو الجسد . أمّا ان يشغل الكلام القلب عن الشوق والشعور ، والفكر عن التصور والتأمّل ، والنفس والجسد عن كلّ حاجة ما خلا حاجة اللسان إلى الحركة . واما أن يحمل القلب والفكر على النطق بما ليس فيهما أو بعكس ما فيهما ، فذلك هو الثرثرة التي تجني على القلب والفكر ، وعلى النفس والجسد في آن معاً .

إن أقوى وأمضى سلاح على الإطلاق يملكه الإنسان في حربه مع المجهول هو الفكر . فلولا الفكر يعمل ويتأمّل في السكينة لكنّا لا نزال قابعين في غياهب المغاور . وهذا السلاح يصدأ بالإهمال وقلّة الاستعمال . أو بالاستعمال في غير الأغراض التي من أجلها وُجد . ونحن عندما نكثر الكلام في توافه الأمور إنّما نسد على الفكر المنافذ إلى جليلها . فنعطله عن العمل المثمر بدلاً من أن نشحذه وندفعه . ونحن إذ نلهي الفكر بالقيل والقال فكأنّنا نسخر العاصفة لنقل قشة من هنا

إلى هناك ، والصاعقة لقتل ذبابة أو بعوضة ، ومثلما لا يتمّ الحمل ولا ينمو الجنين إلاّ في سكينة الأرحام وظلماتها ، كذلك لا يحبل الفكر بعظائم الأمور إلاّ في سكينة الخلوات والتأمّلات .

أتراني أدعوك وأدعو سواك إلى صوامع النسّاك ؟ لا شيء من ذلك . وجلّ ما أريد قوله ان كثرة الكلام ملهاة للفكر والقلب ، ومهلكة للروح . إنّها غربة للنفس عن النفس . والغريب عن نفسه غريب عن كلّ شيء وكلّ إنسان . ونحن لن نعرف أنفسنا ما دمنا نهرب منها ونقيم بيننا وبينها حاجزاً من الثرثرة التي تتخم الأذن وتترك القلب والفكر في جوع ممض وعطش قتّال . والتي تقتل الوقت فتقتلنا مع الوقت .

ألا قليلاً من الصمت والتأمّل !

التردّد

لنا في كلّ يوم – بل في كلّ ساعة – من حياتنا الواعية مواقف نرانا مكرهين معها على الاختيار بين اتجاهين أو أكثر. وقلّما يأتينا الاختيار عفواً وبدون أن يسبقه شيء من التفكير في عواقب ما نختار وما ننبذ. ولأن هذه العواقب تبدو في بعض الأحيان كما لو كانت متكافئة من حيث خيرها وشرّها، ونفعها وضرّها، ترانا نتردّد في أيّها نختار. وقد يبلغ بنا التردّد حدّاً ينشلّ معه الفكر وتتعطّل الإرادة. فلا نحن نقدم، ولا نحن نحجم. فكأنّنا المسمار بين قوّتين متعادلتين من المغنطيس. إلاّ أن المسمار لا يشعر. أمّا نحن فنشعر. وشعورنا في مثل هذه الحالة هو شعور الكسيح يودّ بكلّ جوارحه لو ينهض ويعدو ولكن عضلاته لا تطاوعه. فيغلق قلبه على شهوته المهدورة، ويطوي فكره على إرادته المقهورة. ويمضي يتألم في سكوت عميق وصبر يُفرض عليه فرضاً. فليس له فيه فضل الصابرين.

من الناس من لا يتردّد إلاّ في عظائم الأمور. ومنهم من يتردّد حتى في أتفهها. أمّا الذين لا يتردّدون في شيء

على الإطلاق فما أظنّ أنّ الأرض أبصرت لهم وجهاً أو سمعت لهم صوتاً .

أعرف في من أعرف من الناس رجلاً قلّما ينهض في الصباح من فراشه إلاّ من بعد أن يسأل نفسه مرّات: أأنهض الآن أم بعد قليل ؟ أأحلق ذقني اليوم أم لا أحلقها ؟ أأستعمل الماء البارد للحلاقة أم الفاتر أم الساخن ؟ أألبس بذلتي البنية أم الرماديّة ؟ وقميصي الأبيض أم الأزرق ؟ أأتناول الشاي مع فطوري أم القهوة ؟ أم أستغني عن الاثنين ؟ فقد سمعت من يقول إن كليهما مضرّ بالصحة . — وهكذا دواليك . وعندما يبلغ الباب ويفتحه لينطلق إلى عمله يقف دقائق يتأمّل السماء حتّى إذا أبصر فيها غيمة أو شبه غيمة قر رأيه على أن لا يخرج بدون مظلّة مخافة أن يدهمه المطر قبل أن يدرك بيته في المساء . فيأخذ المظلّة ويمشي بضع خطوات ثمّ يعود بها إلى البيت قائلاً : ما أظنّها تمطر اليوم . — وهكذا يأخذ المظلّة ويردّها غير مرّة قبل أن ينصرف في النهاية إلى عمله .

من الطبيعي أن يفكّر المرء طويلاً قبل أن يقدم على عمل يتوهمه ذا خطورة بالغة في حياته . كالزواج — مثلاً . أو كالهجرة من ديار إلى ديار . أو كاستبدال مهنة بمهنة . أو كخوض معركة فاصلة . وليس من الطبيعي أن يتردّد طويلاً في أيّ المسالك يختار إلى غايته . فالتردّد ، إذا طال ، كان

مضيعة للوقت ، ومتاهة للفكر ، وغلاًّ للإرادة ، وسقماً للجسد والروح في آنٍ واحد .

ومن أين ينبع التردّد ؟

إنّه ينبع من الخوف . وأيّ خوف ؟ — الخوف من أن الطريق الذي نختاره من بين طرق عدّة قد يؤدي بنا إلى غير ما نرغب ، وإلى عكس ما نرغب . وإن هو أدّى إلى الخير فقد يكون خيره أقلّ قيمة من الخير الذي كان يمكن أن يكون من نصيبنا لو أنّنا اتّبعنا طريقاً آخر . انّه الخوف من أن لا نحصل على ما نبتغي ، أو على أقلّ ممّا نبتغي ، أو على نقيضه بالتمام . فهو في كلّ حال خوف . والخوف ، من أيّ نوع ، هو عدوّ الإنسان الألدّ ومحنته الكبرى . وهو لا يكون إلاّ حيث يكون الجهل . أمّا المعرفة فلا قرابة بينه وبينها البتة . بل هي تنفيه من حضرتها مثلما ينفي النور الظلمة .

إذاً التردّد في أيّ أمر من الأمور إنّما يعود إلى جهلنا عاقبة الأمر الذي فيه نتردّد . فلو نحن عرفنا بالضبط ماذا سيجلبه لنا أو علينا عمل بعينه ، أو كلمة بعينها ، وهذا الفكر أو ذاك ، وتلك الشهوة أو هاتيك ، لما ترددنا لحظة في الاقدام عليها أو الإحجام عنها . إلاّ أنّنا نجهل القانون الذي يجعل من الأسباب والنتائج في الكون سلسلة متواصلة الحلقات ، بدايتها في الأزل ونهايتها في الأبد . ونحن نخدع أنفسنا كلّما بدا لنا

أن في استطاعتنا التحكّم في ذلك القانون أو التهرّب منه ، أو أن لنا من المعرفة ما يمكننا من ردّ أي حالة نحن فيها إلى أسبابها السحيقة في القدم ، والّتي تتعدّانا في الغالب ، وتتعدّى والدينا ووالدي والدينا إلى الإنسان الأوّل ، والسبب الأوّل .

في عالم متشابك الأسباب والنتائج كهذا العالم الذي نعيش فيه يستحيل على أيّ منّا ، ونحن من الجهل وقصر البصر والبصيرة حيث نحن ، أن يردّ جميع ما في تكوينه الجسداني والروحي من دقائق لا تحصى إلى عللها الأصليّة . مثلما يستحيل عليه أن يعلم مدى تأثيره المباشر وغير المباشر في سواه من الكائنات . ففي كلّ طرفة عين من وجودنا نسمع ونبصر ونحسّ أشياء كثيرة لا تستوعبها ذاكرتنا . وهذه كلّها ، عن غير وعي منّا ، تصبح خيوطاً في نسيج الحياة الّتي هي حياتنا . وفي كلّ طرفة عين نفكر أفكاراً ونشتهي شهوات ونحلم أحلاماً ، أو نقول أقوالاً ونعمل أعمالاً لا حصر ولا عد لألوانها . وهذه جميعها تفعل فعلها فينا وفي الغير ، فتغدو خيوطاً في نسيج حياتنا وحياتهم . وهذه الخيوط تمتد إلى أبعد من مجال بصرنا وإدراكنا بكثير . فكيف لنا أن نحدد مدى تأثيرها فينا وفي الغير ؟

كيف لي ، وأنا رجل أتخذ من الكلمة المطبوعة وسيلة لنقل أفكاره وأحاسيسه إلى الناس ، أن أتتبّع كل كلمة أكتبها ،

فأعرف من الذي سيقرأها وأين ؟ وكيف يكون وقعها في نفس هذا القارىء أو هذاك . أتكون سلاماً له أم حرْباً عليه ؟ أتفتح له أبواباً أم تسدّ عليه أبواباً ؟ أتفرحه أم تغيظه ؟ أيباركني من أجلها أم يلعنني ؟

لو كان لأيّ عمل أو فكر نتيجة تنتهي إلى حدّ ، ثمّ لو كان لنا أن نبصر ذلك الحدّ ، لبات من المحتّم علينا أن نتحمّل مسؤوليّة كلّ عمل من أعمالنا وفكر من أفكارنا . ولكن النتائج لا تقف عند حدّ . بل تمتدّ وتتغلغل في المستقبل إلى غير نهاية . فهي أبعد بكثير من مجال إدراكنا ما دمنا نجهل القوى التي تسيرها ، والقوانين التي تتمشى عليها . وهذه القوى والقوانين هي التي تسيطر ، في الواقع ، على نتائج أفكارنا وأعمالنا فتردها إلينا إمّا خيراً وإمّا شرّاً — حسبما تقتضيه متطلبات نموّنا وتطوّرنا الجسداني والروحي . فما أكثر ما نسعى بكلّ قوانا إلى أشياء بعينها فتمتنع علينا . وما أكثر ما نهرب من أشياء فإذا بها تلاحقنا كظلنا . وقد يكون في ما نسعى إليه شقاء لنا جسيم . وفي ما نهرب منه خير لنا عميم .

ما دمنا قاصرين عن أن نتتبّع إلى النهاية أيّ نتيجة لأيّ فكر أو عمل من أفكارنا وأعمالنا ، وما دمنا لا مناص لنا من التفكير والعمل ، فأيّ مبرّر للتردّد في ما نفكّر ونعمل ؟ ان التردّد إذ ذاك ليبدو ضرباً من الخبل أو التطاول على سلطان

فوق سلطاننا بما لا يقاس . فما علينا ، وتلك هي حالنا ، ونحن من الجهل والضعف حيث نحن ، إلاّ أن نعمل ، دونما تردد ، بوحي ضمائرنا . وأن نترك النتائج تسير إلى حيث شاءت لها القوى المهيمنة على الكون أن تسير . وكلّ ما نطالب به هو أن لا نضمر إلاّ الخير — حسبما نفهم الخير — في كلّ ما نفكر ونقول ونشتهي ونعمل .

على الزارع أن يزرع . وليس عليه أن يعرف أين تمضي كلّ حبّة من زرعه ، ومن سيأكلها فيحيا ، ومن سيأكلها فيموت . وأقصى ما يحاسب عليه هو أن يزرع زرعاً صالحاً وبضمير صالح . فلا يبذر بذاره إلاّ من بعد أن ينقيه من كلّ حبّة دميمة أو دخيلة ، وإلاّ من بعد أن يعدّ له التربة ، وبيد ما تلوثت بالسموم ، وقلب يستدر الخير والبركة لنفسه وللناس ، وضمير لا ينطوي على الأذية لأيّ مخلوق .

ومن منّا ليس بالزارع ؟ أليس انّنا نزرع أنفسنا بغير انقطاع ؟ أليس أن الغير يأكل من زرعنا مثلما نأكل من زرع الغير ؟ وإذ ذاك ، فما علينا ، إذا نحن شئنا ألاّ نتسمّم ، إلاّ أن نقدم للغير من الغذاء الصالح مثيل ما نتوقع من الغير أن يقدمه لنا . ومن كان ذلك شأنه مع نفسه والناس كان حريّاً به أن لا يتردّد في ما يقول ويفعل ، وأن يتخذ من قول أحد الأنبياء شعاراً له في حياته :

« آمن ، وسر بالحقّ ، ولا تبال ! »

عندما يحزن الزمان

لو كان الزمان من لحم ودم لكان أحقّ المخلوقات بالشفقة ، وأحراها بأن لا تنقطع له شكوى ولا تجفّ دمعة . ذلك لأنّه لا ينجو لحظة واحدة من قوم يسلقونه بالشتائم ، وآخرين يلهبون خاصرته بالمهاميز ، وظهره بالسياط . وهو لا يدري لماذا يُشتَم أو يُضرَب بل كلّ ما في الأمر انّه يقوم بواجبه في تسجيل انباض الحياة قياماً هو الغاية في الدقـة والإخلاص والأمانة . فيتهمه البعض بالسرعة ، والبعض بالتواني ، وغيرهم بالجمود . لئن رضي عنه الواحد سخط عليه المليون . والأنكى أن يقوم من يتهمه بالتدجيل والتلاعب والتزوير . وينسى الجميع أن هذا الزمان الذي يتبرمون بسرعته أو بطئه أو نفاقه هو عين الزمان الذي ساق إليهم بأمانة ما بعدها أمانة كلّ دقيقة من الدقائق التي تذوّقوا فيها طعم البهجة والهناء والرضى والطمأنينة .

يحمل الزمان البشرى إلى والدة من الوالدات بأن ابنها الوحيد الذي انقطعت أخباره منذ ربع قرن سيعود إليها بعد شهر . فيكاد يغمى عليها من شدّة الفرح . وتكاد تريق قلبها

وكلّ قطرة من دمها شكراناً وتسبيحاً للزمان الذي منّ عليها بمثل تلك السعادة . ولو كان لذلك الزمان أن يتجسّد في شكل من الأشكال لأشبعته لثماً وضمّاً ، ولأسمعته من عذب الكلام ما لا يوصف . إلاّ أنّها ، ما إن تصحو من سكرتها تلك ، حتّى ينقلب تسبيحها للزمان تجديفاً عليه . فهو في سيره أبطأ من سلحفاة . فكأنّه مصفّد بالحديد والرصاص . وهو يتلهّى في الطريق بشتّى التوافه . وأيّ شيء ليس بالتافه في نظر والدة تتوقع إشباع عينيها من طلعة ابنها ساعة يطلّ من بعيد ، ثمّ تطويقه بذراعيها ساعة يدنو منها ويصبح في متناول يديها الجائعتين ؟ إنّها لتشتهي لو كان لها أن تسوق الزمان بلظى البرق ، وزمجرة الرعد ، أو أن تحصره فتجعل الشهر الذي يفصلها عن ابنها دقيقة ، بل رفة من جفن . إنّها تودّ لو يغرق ذلك الشهر في لجة العدم .

وينصرم الشهر ، وتحين لحظة اللقاء . فتتمسك الوالدة بها تمسك الغريق بقشة ، والنملة بحبّة . وتروح تتمنّى لو أن الزمان يصاب بالكساح كيما تدوم لها تلك اللحظة حتّى آخر الدهر . لقد كان قبل هنيهة يدبّ في أصفاد من الحديد والرصاص . أمّا الآن فقد استبدل بأصفاده جناحين يسبقان حتّى الفكر والخيال . إنّه لكافر ، ماكر ، يسلبها بيسراه ما قدمه إليها بيمناه . وهي تودّ لو كان لها أن تفعل بالشمس ما فعله يشوع

ابن نون . بل تودّ لو كان لها أن تسمّر الشمس والقمر والأرض وسائر الأجرام السماويّة في أبراجها . وأن تعطل الزمان كيما تدوم لها تلك اللحظة الخلاّبة التي فيها احتلّت الغبطة قلبها ، ومشت في عروقها ومفاصلها ، فانتزعت من حياتها كلّ شائبة ، وتركتها أنقى من الثلج ، وأصفى من النور ، وألطف من بسمة الفجر ، وأخف من العطر على جناح النسيم .

في استطاعة كلّ منّا أن يجد في حياته اليوميّة أمثلة بغير عد لنزاعه الصامت مع الزمان . فهو بطيء حين نريده أن يسرع . وهو سريع عندما نريده أن يتباطأ . هكذا يبدو النهار – مهما قصر – طويلاً جدّاً للعامل الذي أرهقه العمل . في حين أن النهار عينه ، مهما طال ، يبدو قصيراً جدّاً لصاحب العمل الذي يهمّه قبل كلّ شيء إنجاز عمله في أقصر وقت وبأقلّ كلفة . وهكذا يتبرّم الطالب ببطء الزمان عندما تدنو العطلة الصيفيّة ، ليعود فيتبرّم بسرعة ذلك الزمان عينه قبيل انتهاء تلك العطلة .

لنا في كلّ يوم جولات وجولات مع الزمان . فهنالك أمور نودّ لو ندركها في مثل سرعة الطرف . ولكن الزمان يأبى إلاّ أن نسير إليها على توقيع عقرب الثواني في الساعة التي على معصمنا ، أو التي على جدار بيتنا . وهنالك أمور نسعى إلى

الابتعاد عنها بكلّ قدرتنا ولكن الزمان يجرّنا إليها جرّاً حثيثاً حتّى لتبدو الساعات كما لو كانت ثواني ، والسنون كما لو كانت أيّاماً .

حقّاً إن دقيقة الألم ساعة . وساعة اللذة دقيقة . ولا يد للزمان في تطويل دقيقة الألم ، ولا في تقصير ساعة اللذّة . وترانا ، رغم ذلك ، نحمّله جميع أوزارنا . فهو الذي عجّل في انتزاع نضرة الشباب من وجوهنا ، وفي تغضين جباهنا ، وتبييض شعورنا ، والذهاب بأسناننا وأضراسنا ، وفرار القوّة من سواعدنا وركابنا ، وإضعاف البصر في عيوننا والسمع في آذاننا . وننسى أنّنا أيّام كنّا في مروج الصبا ، كنّا لا ننفك نجلد الزمان ليسرع في الوصول بنا إلى غابات الشباب ، عالمين حقّ العلم أنّه سينتقل بنا من بعدها إلى واحات الكهولة فصحراء الشيخوخة .

إلاّ أنّ الزمان ، وإن تحمّل منّا الشتم والوخز والجلد بصبر ما بعده من صبر ، لا يعدم الوسائل للانتقام من العابثين بأمانته وكرامته . فما أكثر ما يُضرب عن السير ، فلا يتقهقر شبراً ولا يتقدم انملة . حتّى كأنّه المسمار في الحائط ، أو كأنّه البغل الحرون لا يجديك معه سوط أو مهماز ، ولا كلمة قارصة أو لعنة صاعقة ، ولا توسّل أو استعطاف . إنّه يأبى أن يتزحزح من مكانه .

وفي الواقع ، تمرّ بنا حالات يحجم فيها الزمان عن السير ، ويبدو كما لو كان شبحاً هائلاً يجثم على صدورنا — ثقله ولا ثقل الجبال ، وسحنته ولا سحنة الشيطان . وهو يضيق علينا أنفاسنا ، ويدلي الستائر السود على أبصارنا ، ويشحن آذاننا بدندنة ترتعش لها فرائصنا ، ويتجمّد الدم في عروقنا .

ليس يعرف ثقل الزمان إذا حرن إلاّ الذين عرفوا الحزن العميق ، الأصمّ . أو الهم الذي يتأكل الجسم والروح تأكُّل الصدإ للحديد ، أو الضجر الذي يملأ الفكر فراغاً موحشاً ، أو اليأس الذي يضرب خيامه في أرجاء النفس فلا تتسرّب إليها نسمة أمل ، ولا يعمل على تقويضها أيّ إيمان . فالحزن متى شدّ بكلاليبه على الحلق ، وعصر بأصابعه المـآقي ، واحتلّ القلب حتّى الشغاف ، وصمّ الآذان عن كلّ صوت غير صوته ، جندل الزمان وتركه شلواً . حتّى ليبدو للحزين ان كلّ ما في الكون يتحرّك ويتغيّر ويتبدّل إلاّ الغصّة الّتي في حلقه ، والعتمة الّتي في عينه ، والحرقة الّتي في قلبه . فهذه لا تتزحزح أبداً . إنّها الأطواد الراسية في وجه الريح . وهكذا قل في الهمّ إذا استفحل ، والضجر إذا تفشى ، واليأس إذا سلطن . فالزمان إذ ذاك صدفة جوفاء على شاطىء مهجور . أو كسيح في ميدان سباق .

عندما يحرن الزمان تتعرّى الحياة من جميع مفاتنهـا

ومحاسنها . فأصواتها نعيب البوم . وألوانها قتام في قتام . وأشكالها نخرة . وحركاتها رقصة الفناء في الخواء . انها الكاعب وقد انقلبت عجوزاً شمطاء ، والواحة المخضلة وقد تكشفت عن سراب .

إني لأشفق على الذين يحرن بهم زمانهم في ساعة حزن ، أو همّ ، أو ضجر ، أو يأس ، أو ثورة من الغضب . فهم يتوهمون أن ما بهم مقيم حتّى قيام الساعة . وينسون أن الحياة لا تنفكّ تنبض فيهم نبضها العجيب ، الرتيب . فلا هي تسرع ، ولا هي تبطىء ، ولا هي تحرن رفة جفن . ونبض الحياة هو الذي يخلق فينا الشعور بالزمان . والشعور بالزمان يعني الشعور بعدم الاستقرار ، وبالتنقل المستمر من وضع إلى وضع ، ومن حال إلى حال . ولأن الحياة تنبض في الجثة الهامدة نبضها في الجسد الحي ، فنبضها يعني عناداً في الاستمرار الذي يهزأ بالموت والانحلال . وإذا كان نبض الحياة المستمر يهزأ بالموت والانحلال فهو لا شكّ يهزأ بالحزن والهمّ والضجر واليأس والغضب وكلّ حال تبدو لنا كما لو أن الزمان قد تعطل عند أعتابها .

وإذ ذاك فحري بنا أن نسأل : لماذا تنبض الحياة نبضاً لا انقطاع فيه ؟ ألعلّه يطربها أن تنبض — لا أكثر ولا أقل ؟ ذلك ، لعمري ، هو منتهى السخف . إنّه الجهد الذي لا طائل

تحته ، والحركة التي لا بركة فيها .

إنّما تنبض الحياة باستمرار لأن لها أهدافاً تسعى إليها دونما كلل أو ملل . إنّها تمشي بجميع أبنائها إلى حيث يصبح في إمكانهم أن يسمعوا أنباضهم في أنباضها ، ويعرفوا وحدتهم في وحدتها ، ويدركوا خلودهم في خلودها . فجدير بالذين يحزن بهم زمانهم أن يردّدوا أبداً مع الشاعر :

ما بين طرفة عين وانتباهتها
يغيّر الله من حالٍ إلى حالِ

ملحمة الملاحم

(كتبت إبان الحرب العالمية الثانية)

طغت هذه الحرب على قلوب الناس وأفكارهم — المحاربين منهم وغير المحاربين — طغياناً لا عهد لهم بمثله منذ عهدهم بالتاريخ . فهي على شفاه الكبار والصغار في مشارق الأرض ومغاربها ، وملء مسامعهم وأبصارهم . وهي في التراب الذي يطأون ، والهواء الذي يتنفسون ، وفي ما يأكلون ويشربون ويلبسون ، وكلّ ما يتصل بهم من قريب وقصيّ ، وظاهر وخفي ، فكأنّما الأرض مسرح واحد والناس جميعهم ممثلون. وكأنّما الحرب ساحر يهزّ عصاه فينبري كلٌّ يمثل دوره أتمّ تمثيل . أو كأن الحرب تيار كهربائي هائل ما مسّ إنساناً من الناس حتى مسهم أجمعين .

تلكم ، في نظري ، هي المعجزة الكبرى التي جاءتنا بها هذه الحرب . فمن بعد أن مرّت بالناس حقب طويلة تفسخوا في خلالها قبائل لا روابط بينها ، وانتشروا في طول الأرض وعرضها أمماً وممالك لا تجمعها جامعة ، وراحوا يمثلون مشاهد متقطعة على مسارح متباعدة ، إذا بهم اليوم يمثلون

رواية واحدة على مسرح واحد ، وينفعلون في آن واحد بانفعالات واحدة . وهكذا تعود الإنسانيّة المفكّكة فتبدو جسداً واحداً تشترك في جهازه العصبي وفي دورته الدموية أعصاب كلّ الأمم ودماؤها .

أجل . ذلكم هو الفتح المبين الذي فتحته للناس هذه الحرب من حيث لا يعلمون . فقد أظهرتهم جماعة واحدة تتقاتل في الظاهر وتتطاحن ، ولكن على حد ما يتقاتل الممثلون في رواية تندمج مشاهدها وفصولها وكلّ حركاتها وسكناتها في وحدة رائعة من الفكر والفن . فما من كلمة زائدة ، أو حرف مهمل ، أو حركة في غير محلّها ، أو سكنة إلاّ في أوانها .

أمّا الرواية التي بدأ الناس يمثلونها منذ آدم وحواء غير عارفين ما هي ولا الذي ألّفها ولا القصد من تأليفها فهي ملحمة الملاحم — ملحمة الإنسان مع نفسه ومع الأرض والسماء . وما هذه الحرب التي نحسبها كارثة هائلة غير مشهد ضئيل من مشاهدها — ولا أقول فصل كبير من فصولها . وسيلي هذا المشهد مشاهد ، ثمّ فصول ، ثمّ مشاهد تنكشف لنا تفاصيلها لمحة تلو لمحة ، وعاماً بعد عام ، وجيلاً اثر جيل . ولن يُسدل الستار عليها إلاّ بالغلبة الكاملة للإنسان الكامل .

فما أجهل الناس — وهم من نضالهم في البداية — يتوهمون أن ملحمة الإنسان قد أشرفت ، أو تكاد ، على النهاية ، وان هذه الحرب هي الفصل الأهم والأخير من فصولها . فلا تضع أوزارها حتّى يُسدل الستار على الحروب ليرتفع من جديد عن إنسانيّة ترتع في سلام دائم ، وتنعم بحرية أو حريات — أقل بركاتها العدل والحقّ والمساواة ورغد العيش .

كيف للحرب التي نحن في غمارها ، بل كيف لأيّ حرب ، أن تضع أوزارها وما هي غير مشهد من مشاهد ملحمة الملاحم التي ما برحت ولن تبرح مشبوبة السعير ما دام في السماء وعلى الأرض قيد واحد يقيد حريّة الإنسان ؟

وها هو الإنسان يرسف في قيود لا حصر لها ولا عد . فهو في حربه مع نفسه ما يزال كالخشبة الطافية على وجه اليمّ في حربها مع الأمواج . فلا هو سيّد فكره يسيّره كما يشاء ، ولا هو سلطان قلبه يجريه حسب هواه ، ولا هو ربّ جسده يتحكّم فيه بملء إرادته . بل نراه ، على العكس من ذلك ، ألعوبة لأفكاره ، ومطية لأهوائه ، وعبداً لجسده . ولن تتم له الغلبة حتّى يصبح السلطان المطلق على فكره وقلبه وجسده ، فيجعل منها مثلثاً متساوي الأضلاع ، تستطيل أضلاعه استطالة الزمان ، وتتسع مساحته لكل ما في المكان . ما

لاتزانه نهاية ، ولا على ثباته من خوف .

أمّا نصيب الإنسان في حربه مع الأرض فليس بأوفر منه في حربه مع نفسه . فهذا الكوكب الذي ما ينفك هائماً بنا في مفاوز الفضاء ماذا عسانا نعرف عن ماضيه وحاضره وآتيه ، وعمّا انطوى عليه من العجائب والغرائب ، وعن مقصده من دورانه ، وعن شأنه منّا وشأننا منه ؟ ماذا عسانا نعرف من أسرار ذلك الجو الساحر والمسحور الذي يغلّف هذه الأرض والذي تلتقي فيه جميع أفكارنا وأحلامنا وشهواتنا بأفكار من سبقونا و أحلامهم وشهواتهم فتتشابك وتتلاحم ، وتتصادق وتتعادى ، ويبقى ، مع ذلك ، لكلّ منها مجراه والنقطة التي منها انطلق وإليها يعود ؟ إن جوّنا ليزخر ، فوق ذلك ، بما تبثّه فيه الشموس والدراري من حرارة ونور ، وبما تنثره من ذريراتها ، وترسمه من خيالاتها ، وترسله من عجيب أصواتها وأنفاسها ، مثلما يزخر بأنفاس الأرض وكلّ ما على أديمها من حياة وسائل وجماد .

ماذا عسانا نعرف عن أحشاء أرضنا وما انطوت عليه ، وحتّى عن رقعة وجهها وما يتألّب عليها من غريب الألوان والأشكال ؟ ثمّ ماذا عسانا نعرف عن منابع الرياح ، ومسارح السُّحب ، وأعماق اللجة ، ومسالك الحياة السرية في خلايا النبات والحيوان والإنسان ؟

لقد جمعنا الكثير من المعلومات عن طبقات الجوّ وطبقات الأرض ، وعن جمادها ونباتها وحيوانها ، وهي معلومات ذات قيمة من غير شك . ولكننا ما نزال غرباء عن الأرض ، وما تزال الأرض كتاباً مغلقاً دون افهامنا . أمّا اختراعاتنا ، على وفرتها ، وأمّا اكتشافاتنا ، على أهميتها ، فما عدت أن فتحت لنا بعض صفحات من ذلك الكتاب ، إلاّ أنّها ما حلّت لنا طلاسمها ولا هدتنا إلى المفتاح لحلّها . فعلومنا وفنوننا ، واختراعاتنا واكتشافاتنا ، ونظمنا الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة ليست سوى أدوات لنا في حربنا مع الأرض . أما أنّها الأدوات التي تكفل لنا النصر ، وأما انّها جاءتنا بالنصر كما يظنّ بسطاء العقول ، فوهمٌ فادحٌ لا يحمل إلى المؤمنين به إلاّ الخيبة ومرارة الخيبة . فالأرض ما تزال علامة استفهام رهيبة في وجه الإنسان . والإنسان عبد ما يجهل وسيّد ما يعرف . ولكنّه مطبوع على طلب الحرية . لذلك سيمضي في حربه مع الأرض إلى أن تتم له الغلبة . ولن تتمّ له الغلبة إلاّ متى توفّق إلى أسلحة أقوى وأبقى وأمضى من التي اهتدى إليها حتى اليوم . والأسلحة تلك جاهزة وموفورة في كيان الإنسان نفسه . إلاّ أنّه ليس « جاهزاً » بعد للوصول إليها ولحسن استعمالها . والزمان بطوله كفيل بأن يوصله إليها وبأن يعلّمه كيفيّة استعمالها

على أتمّ وجه .

وأمّا السماء ـ وأعني بها ذلك العالم المحجوب عن الأبصار لا عن البصائر ، والذي اتفقنا أن ندعوه عالم ما وراء الحسّ أو عالم الروح ـ أمّا تلكم السماء فالإنسان ما ينفك معها في حرب أين من ضراوتها حربه مع الأرض . فهو ، منذ أن كان ، ما برح يفتش عن مصدره ، وعن مآبه ، وعن الغاية من وجوده ، وعن القصد من تشعّب حياته ما بين عوامل لا يدرك لها أوّلاً ولا آخراً . فكأنّ حياته نهر واسع يسير بين شطّين أحدهما شطّ الخير ، أو ما تعوّد أن يدعوه الخير ، والآخر شطّ الشرّ ، أو ما ألف أن يدعوه الشرّ . وبين هذين الشطين تهب عليه تارة ريح مؤاتية فيرى الحياة نعمة وهناء . وطوراً تعصف به العواصف فيرى الحياة نقمة وشقاء .

إن حرب الإنسان مع نفسه ومع الأرض والسماء هي في الواقع حرب واحدة يشنها الإنسان على جبهات ثلاث . وإذا ما فاته النصر حتى اليوم فلأنّه ما يزال حديث العهد بالقتال وأساليبه ، ولأن عدته الحربيّة ما تزال بالنسبة لعدة أضداده ، كالمقلاع بالنسبة إلى الصاروخ ؛ ولأنّه ، وهذا هو الأهمّ ، ما تعلّم بعد كيف يوحّد قواه وقيادته . ولو انّه تعلّم ذلك لا غير لأصبحت الغلبة منه على قيد باع وأدنى . لكنّه ماضٍ في حربه الضروس على غرار أسلافه . فحروبه

ما برحت حروب قبائل ضدّ قبائل ، وأمم ضدّ أمم ، وأجناس ضد أجناس ، ومذاهب ضد مذاهب ، وأقطار ضدّ أقطار ، وطبقات ضدّ طبقات . كأنّما الأرض جيفة والناس ضوارٍ وكواسر لا غير . إلاّ أنّها – وأعني حروب الناس – سائرة بهم حتماً ، ومن حيث لا يعلمون ، إلى دولة عالميّة ، ولغة عالميّة ، ونقد عالمي ، وفي المستقبل البعيد – إلى دين عالمي . فهي مراحل تمهيديّة لتوحيد القيادة والقوى في ملحمة الملاحم – ملحمة الإنسان مع نفسه ومع الأرض والسماء .

وها نحن لا نجد للحرب الّتي اجتاحتنا أمس والحرب الّتي تجتاحنا اليوم نعتاً أصدق من قولنا « الحرب العالميّة الأولى والحرب العالميّة الثانية » وفي ذلك مغزى بعيد لأولي الألباب . وهو أن الأرض الّتي كانت حتّى أمس القريب مسارح لا تربطها صلة أصبحت اليوم مسرحاً واحداً . والعالم الذي كان نتفاً مبعثرة راح يبدو لنا عالماً واحداً . والإنسانية الّتي كانت أعضاء مفكّكة أخذت تبرز لأفكارنا جسداً واحداً يشترك لأوّل مرّة في عمل واحد ، وإن يكن ذلك العمل حرباً أقل أهوالها الموت والدمار . وههنا العجيبة – عجيبة المدفع الذي ما خُلق إلاّ للتمزيق والتفرقة يغدو أداة رتق وجمع !

يا ليت لكم أن تنظروا بعيون ما لوّنتها العصبيات القوميّة

والدينيّة والإقليميّة . إذاً لعرفتم أن اقتتال الناس من أجل هذه البقعة أو تلك من الأرض ليس سوى تمهيد لقتالهم المشترك في سبيل التغلّب على الأرض وجعلها جنّة آمنة للناس أجمعين . وإذاً لأبصرتم من خلال أغشية السنين القريبة والبعيدة إنسانيّة جديدة تحشد قواها الزاخرة تحت لواء واحد هو لواء الإنسان ، وبقيادة واحدة هي قيادة الفكر الإنساني الجبّار ، وبإرادة واحدة هي إرادة الإنسان الّتي ما التوت ولن تلتوي في حربها مع المجهول . وإذاً لأدركتم أن كلّ ما ينتاب الإنسان في حياته من تجارب ليس أكثر من مشاحذ لسلاحه وإرادته في ملحمته الهائلة . وإذاً لأيقنتم أن الإنسان لن يخرج من ملحمته تلك إلاّ وقد انفتحت له مغالق الأرض وكوى السماء ، وأصبح سيّد نفسه المطلق لا ينازعه فيها منازع ولا تحصرها شطوط خير أو شرّ ، ولا حدود زمان أو مكان .

تلكم هي الحرية القصوى التي ما من هدف سواها يليق بالإنسان العجيب وبالملحمة العجيبة الّتي هي حياته . واللبيب اللبيب من اتخذها نبراساً لأفكاره ونياته ، فجعل من أيّامه ولياليه درجات يرقى بها إلى قلب هيكلها القدوس .

خلفاء الاستعمار

تسود العالم العربي في هذه الأيّام حالة من القلق المادي والروحي تكاد تشبه الفوضى . فمن البصرة حتّى الدار البيضاء ، ومن صنعاء حتّى حلب ، تسري وشوشات وهمهمات وغمغمات وكأنّها تترقب الفرصة المؤاتية لتنقلب انفجارات مدويات ، ونيراناً هاصرات . وإن أنت سألت أي عربي عن سبب هذا القلق أجابك : إنّه الاستعمار .

* * *

كان العبرانيون في أيّام موسى ، وعلى مدى أجيال بعده ، يحرقون في كلّ عام كبشاً بمثابة كفارة عن جميع ذنوبهم في ذلك العام . وكانوا يدعونه كبش المحرقة . ويبدو لي أن العرب جعلوا من الاستعمار ذلك الكبش . فهم يلقون على ظهره كلّ كبيرة وصغيرة من مشكلاتهم ومتاعبهم ومخازيهم . إذا جاعوا فالاستعمار مسؤول عن جوعهم . وحيثما ركبهم الجهل ، وتفشت فيهم الأوبئة ، وتشتتت كلمتهم ، وانشلت إرادتهم فالاستعمار من وراء كلّ ذلك . وحيثما ذر قرن الفتنة الدينية أو السياسيّة فيما بينهم ، أو اضطربت أسواقهم التجارية

والماليّة قالوا : هو الاستعمار يثير الفتنة ويزعزع أركان حياتنا الاقتصاديّة .

والعرب على حقّ في ذلك إلى حدّ بعيد . فالاستعمار لا يكون استعماراً إذا هو حاول أن يحفر قبره بظلفه . وهو يحفر قبره بظلفه إذا عمل على تقوية ماديات المستعمَر ومعنوياته، وعلى توحيد كلمته وإرادته . فالقاعدة التي يتمشى عليها ، والتي تحتمها عليه مصالحه ، هي القاعدة الاستعمارية المعروفة منذ أقدم العصور : فرّق تسد .

إلاّ أنّ هذا التمادي من قِبَل العرب في عزو كلّ ما بهم من ضعف وتفكّك وتخاذل وبلبلة إلى الاستعمار وحده من شأنه أن يزيدهم ضعفاً وتفكّكاً وتخاذلاً وبلبلة . ذلك لأنّه يعميهم عن مكمن الداء . فهم لو تفحصوا أنفسهم ، ولو أخلصوا لقضيتهم لوجدوا الداء فيهم قبل أن يجدوه في الاستعمار . ولأدركوا أن الاستعمار ليس غير غرض من أغراض ذلك الداء . فهو ما دخل بلاداً إلاّ بدعوة من حكامها وعلى أكتاف سكانها . وهو ما جاءهم من الخارج إلاّ لأنّهم مهّدوا له السبيل في الداخل . والاستعمار ، مهما يكن نوعه ولونه ، لا يختلف بكثير أو قليل عن أيّ حركة أو فكرة أو نبتة قابلة للنموّ . ولا بدّ له من تربة يستطيع أن يرسل جذوره فيها ومن جوّ ملائم لامتداد جذوعه وأغصانه . فحبّة القمح

لا تنبت في الصخر . والطحلب لا يعيش في التراب . واللؤلؤة لا تنمو في بوتقة الصائغ .

ومن هم الذين مهدوا للاستعمار في دنيا العرب ؟

إنّهم العرب أنفسهم ، وعلى الأخص ذوو الأمر والنهي فيهم من مدنيّين وعسكريّين ودينيّين وإقطاعيّين . وذلك بما أشاعوه في نفوس العرب من الذل ، والاستكانة ، والتواكل ، والتنابذ ، والخوف ممّا في السماء وعلى الأرض ، والفقر وما يلازم الفقر من قذارة ظاهرة وخفيّة ، وأمراض جسدانيّة وروحيّة . وهذه كلّها هي التربة الأحبّ إلى قلب الاستعمار . فهل من عجب انّه أخصب فيها منتهَى الخصب ، فامتدت جذوره بعيداً في العالم العربي حتّى ليكاد يتعذّر عليه اقتلاعها واستئصالها ؟ وإن هو اقتلعها من هذا القطر أو ذاك عادت إليه من أقطار عربيّة أخرى لا يزال الاستعمار فيها في ذروة قوته ومجده .

لو ان ما ينفقه العرب في هذه الأيّام من قوّة القلم والحنك ، ومن الوقت والورق في تقبيح الاستعمار وشتم المستعمرين ، أُنفق مثله في رفع مستوى العرب المادي والمعنوي ، وفي استئصال الذل من قلوبهم والنعرات الإقليميّة والدينيّة من رؤوسهم ، لما طال الوقت حتّى يقوض الاستعمار خيامه عن ديارهم ، وحتّى يطوي أعلامه ويرتحل عنهم إلى غير رجعة .

ولكنهم لاهون عن أعداء ألدّاء في داخلهم بعدوّ في خارجهم .
ويا ليتهم يعلمون أنّه لولا أولئك الأعداء لما كان هذا العدو .
فهم لو علموا ذلك لارتدّوا باللوم على أنفسهم قبل أن يرتدّوا
على الغريب . ولأوقفوا في قفص الاتّهام زعماءهم الذين
أسكنوا الذل في قلوبهم ، والعتمة في أرواحهم ، ثمّ أباحوا
أجسادهم للجوع والقذارة والمرض ، قبل أن يوقفوا الاستعمار
في ذلك القفص .

من الجلي أن علاقة لا تقوم بين كائنين أو شعبين إلاّ على
قدر ما يكون في طبيعة الطرفين من التجاوب والمطاوعة في
إقامة تلك العلاقة . مثلاً : ما استطاع الإنسان حتّى اليوم أن
يجعل من الأسد حارساً لشخصه ولبيته . واستطاع أن يجعل من
الكلب ذلك الحارس . فطبيعة الأسد تأبَى الاتكال والامتثال
والذل . فلا تطاوع طبيعة الإنسان . في حين يتقبل الكلب
ضرب العصا من يد صاحبه . ثمّ لا يلبث أن يبصبص له بذنبه
ليتناول كسرة خبز من عين اليد التي انهالت عليه بالعصا .
و الإنسان ما تمكن من أن يحمل وحيد القرن على جرّ المحراث
في حقله وتمكّن من أن يفعل ذلك مع الثور . والثور ووحيد
القرن كلاهما من القوّة بمكان . لكن طبيعة هذا غير طبيعة
ذاك . ولذلك حمل الثور نير الإنسان ولم يحمله وحيد القرن .
ولو شاء الثور ، بما له من قدرة خارقة ، أن يعصي الإنسان لما

عرفت رقبته النير ولا فخذه المنخس .

ما هو الاستعمار الذي حمل الذل والفقر والجهل والتفرقة إلى ديار العرب . ولكنه وجدها فيها فاستغلّها إلى أقصى حدود الاستغلال . والذين ساعدوا على نشر هذه الآفات بين العرب ، ثمّ ساعدوا المستعمر على استغلالها ، هم العرب أنفسهم – هم ذوو السلطان فيهم ، وذوو الوجاهة والمال والممتلكات الواسعة . هؤلاء هم الذين ما عرفوا بعد قيمة الإنسان في نفوسهم ولذلك راحوا يمتهنونها في كلّ نفس . فزين لهم جهلهم أن الكرامة – كل الكرامة – في أن تذل جارك . والوجاهة – كل الوجاهة – في أن يزحف الغير إليك على بطونهم . والغنى – منتهى الغنى – في أن يجوع من هم دونك ليستعطوك أبداً كسرة يسدون بها رمقهم ، أو أسمالاً يسترون بها عريهم . أولئك ، وإن كانوا من أرومة عربيّة ، هم أعداء العرب الألداء ، وحلفاء الاستعمار الأوفياء . أولئك هـم المجرمون . ويا ويلهم يوم يحاسَبون !

ليس يجدي العرب فتيلاً في هذه الفترة الحرجة من تاريخهم أن يتغزلوا بأمجادهم السالفة ، أو أن يسلقوا الاستعمار بألسنتهم وأقلامهم . فمذلّة اليوم لن تمحوها جميع أمجاد الأمس . وشتم الاستعمار والمستعمرين لن يعز ذليلاً ، ولن يغني فقيراً ، ولن يعلم جاهلاً .

إن الذين عزت نفوسهم لا يأتيهم الاستعمار من الخارج ولا من الداخل . والذين هانت نفوسهم لامفرّ لهم من الاستعمار حتّى وإن تورّمت جيوبهم بالمال ورؤوسهم بالعلم . فإذا لم يستعمرهم الأجنبي استعمرهم الوطني . وإذا لم يستعمرهم الوطني استعمرتهم الخساسة التي في نفوسهم ، والوهن الذي في إرادتهم ، والغشاوات التي على أبصارهم وبصائرهم .

فجدير بالذين يحبّون العرب وخير العرب أن يعملوا بكلّ قواهم على انتزاع العجرفة من رؤوس حكامهم ، واقتلاع الذل من قلوب محكوميهم . فما أحلى الفقر والجهل مع الأنفة والشمم ! وما أكره الغنى والعلم مع الذل والاستكانة ! وأحلى من الأنفة والشمم ، ومن العلم والغنى ، هو اليقين بأن الإنسان بذار إلهي . وأن ذلك البذار ليس للاستعمار والاستثمار بل للتفتّح على البقاء الذي لا يدنو منه فناء وعلى الحرية التي لا يحدها مكان ولا يحصرها زمان .

أكلوني البراغيث

لي صاحب غريب الأطوار ، حاد الطبع ، مرهف الحس ، عصبيّ المزاج ، قويّ الشكيمة ، وعلى جانب عظيم من العلم وطيب السريرة . إذا صادفته في ثورة من ثوراته قلتَ إنّه الليث وقد استفزّه الجوع أو الغضب . وإذا التقيته في ساعة رضى قلت إنّه الحمل الوديع يرعى العشب في مرجة خضراء وأمّه إلى جانبه . وأنت لا تدري متّى يغضب ويثور ومتّى يرضى ويطمئن . ولأنّه كذلك تراه يعيش ولا رفيق له في الدنيا ولا صديق .

لقد حاول صاحبي غير مرّة في شبابه أن يتزوّج . لا رغبة منه في الزواج ، بل إرضاء لوالديه . ولكنّه كان في كلّ مرّة يتملّص من مسؤوليّة الزواج لأتفه الأسباب . أمّا السبب الحقيقي فما كان يبوح به لأحد . وقد لمّح لي عنه تلميحاً إذ قال لي ذات يوم في خلال حديث عابر دار بيني وبينه منذ أعوام :

« لي مزاج لا يأتلف وأيّ مزاج . فأنا أكره الرياء والمصانعة والمداهنة والمجاملة والتبرّج والنفاق والثّرثرة والنميمة والغرور

وحبّ الظهور . أكرهها حتى الموت . إنّها تؤذيني . تؤذيني في عيني ، وفي أذني – حتى في أنفي . أتصدق أن لهذه كلّها روائح كريهة وأني أشمّها كما أشمّ روائح الجيف والنتانة ؟ أتصدّق أن لها كذلك أشواكاً تخزني في كلّ مسامّ جلدي ؟ إني أتعشّق البساطة وأحبّ الصدق عارياً من كلّ وشي وزخرفة . إني أريد الناس سافرين . أريدهم وقلوبهم على أكفّهم . أريدهم كما خلقهم ربّهم . »

قلت ممازحاً :

« تريدهم على مذهب أهل العري ؟ »

فأجاب ببرودة متناهية وكنت أتوقع منه العكس :

« لا تتجاهل . أنت تعرف ما أعني . » وبعد وقفة قصيرة تابع مقطّعاً كلماته تقطيعاً :

« أريدهم عراة الفكر والقلب – عراة الضمير . لا عراة الأبدان . »

أمّا اليوم فقد جاوز صاحبي الخمسين . وبات الزواج بعيداً عنه بُعده عن سنّ الطفولة . فهو لا يأتي على ذكره البتّة . ويمتعض أشدّ الامتعاض إذا قال له قائل : « نفرح منك إن شاء الله . »

جاءني أمس فألفاني أتصفّح بعض ما حمله إليّ ساعي البريد من رسائل ومن صحف يوميّة ودوريّة . فسلّم واقتعد

مقعداً قبالتي . فناولته جريدة يتسلّى بها ريثما أفرغ من تلاوة رسالة في يدي . وكنت أعرف كرهه للصحف والراديو ولكلّ الوسائل التي تنقل أخبار الناس للناس . فأخذ الجريدة وراح يقرأ فيها– أو هو تظاهر أنّه يقرأ. وما هي إلاّ دقائق حتى رأيته ينتصب واقفاً بقامته الفارعة ثمّ يأخذ يحكّ في رأسه وفي صدره وظهره وكلّ ناحية من جسده حكاكاً حادّاً، متواصلاً، مشفوعاً بـ « أفّ » طويلة ، متكرّرة كأنّ جيشاً من القمل قد ركبه بغتة وراح يرعى في جسمه من أمّ رأسه حتى أخمصيه . وقد تجهّم وجهه ، وتكاثفت التجاعيد على جبينه ، وارتعشت شفتاه ، وجحظت عيناه . فالتفتّ إليه بشيء من الدهشة وسألته وبي خشية من أن يكون في بدء نوبة من نوباته العصبيّة :

– ماذا دهاك يا هذا ؟

فجاءني جوابه في سرعة ونَزَق :

– أكلوني البراغيث ! – قالها بمنتهى الجدّ وهو لا يزال مستمرّاً في حكاكه . فما تمالكت عن الضحك وقلت :

– أما تخشى أن يسمعك سيبويه في قبره ؟

فردّ في الحال ومن غير أن يلتفت إليّ :

– ليسمَعْني ذلك البرغوث الأكبر . إن مَن يأكل العاقلَ لحريّ بأن يُعامَل معاملة العاقل – وبرغم أنف سيبويه . أما قال البدويّ : أكلوني البراغيث ؟ – قلت :

— ولكن من أين البراغيث ؟ من الأكيد أنّها لم تنقضّ عليك من كمين في بيتي .

عندئذٍ اعتدل الرجل في وقفته ، وتوقف عن الحك ، ثمّ تناول الجريدة التي كان يقرأها وضربها بكفّه اليمنى ضربةً مزّقتها وصاح :

— من أين البراغيث ؟ ! من هنا ! إنّهم — وشدّ على الميم في « إنّهم » — يقفزون عليّ من كلّ فجّ وصوب : من فورموزا . من بيبنغ . من كراتشي . من بغداد . من طهران . من أنقره . من موسكو . من برلين . من باريس . من لندن . من واشنطن ، ومن كلّ عاصمة ومزرعة في الأرض . جيوش كرمل البحر . لا ترتد انملةً ، ولا تّهادن لحظة .

وعاد الرجل يحكّ جسمه بكلتا يديه ، ويمينه ما تزال قابضة على الجريدة الممزّقة ، فيُسمع لها حفيف منكر . وقد كان في هيأته ، وفي صوته وحركاته ما يبعث على الضحك والرهبة في آن واحد . فما تجاسرت أن أعلّق على ما قاله بإشارة أو بكلمة مخافة أن أزيد في اهتياجه . ولكنه ما لبث أن أقلع ثانية عن الحكاك ، ثمّ أخذ يلوّح بالجريدة التي في يده تلويحاً حادّاً فيزيدها تمزيقاً فوق تمزيق وهو يتكلّم بحدّة فائقة ، فتخرج الكلمات من فمه وكأنّها الرصاص ينطلق

من بندقيّة أوتوماتيكيّة :

— هذه الجريدة ، والآلاف المؤلفة مثلها في العالم ، تنقل في كلّ يوم إلى الناس أخبار الناس . وما هي الأخبار التي تنقلها ؟ — أحلاف عسكريّة . قنابل جهنميّة . سعايات ونكايات . عربدات ودعايات . تهويش وتهديد . تبجّح ووعيد . جرائم بالقناطير . وكذب بغير كيل أو ميزان . فهذا دواء يردّ إلى الشيخ عزيمة الشباب . وهذا مسحوق يكفل لك الجمال الذي لا يذوي . نجوم في السماء ونجوم على الأرض — وأين من نجوم الأرض نجوم السماء ؟ ! صدور عريانة . أفخاذ عريانة . أبدان تسيل إغراء وشهوة . يا لعفة الحيوان ! يا لدعارة الإنسان ! مداليات شرف تُعلّق على صدور عامرة بالخسائس ومقفرة من الشرف . جوائز السلم تُمنح للسفّاكين والدهاة المنافقين . رقيق أسود . رقيق أبيض . خطر أصفر . خطر أحمر . وأخطار بلون قوس قزح . . . براغيث . براغيث . براغيث . . . إني لأعجب لك تقرأ الصحف ولا تحسّ من الضيق ما أحسّ . فأخبارها تكاد تخرجني من جلدي . وكذلك الراديو وأخباره وترّهاته .

قلت وقد وجدت في ذكره للراديو ما قد يغيّر مجرى الحديث :

— أنت تظلم الصحف يا صاحبي . فما ذنبها إذا كانت

تعيش في زمان مضطرب فتنقل إليك أخباره المضطربة ؟ ثمّ ما ذنب الراديو ينقل إليك من الأخبار ما تنقله الصحف ؟ إلاّ أنّ للراديو ميزةً ليست للصحف . فهو يمتعك ، علاوة على الأخبار والأحاديث ، بساعات من الطرب يحمله إليك الصوت الرخيم والوتر المرنان . لا . ليس في الراديو براغيث .

فجاءت النتيجة على عكس ما توقعت بالتمام ، إذ انتفض الرجل انتفاضة كلّها غضب ، ورمى الجريدة التي في يده بعيداً ، ثمّ حملق إليّ طويلاً وصاح :

— الراديو ؟ ! . لقد كان لهذه الآلة العجيبة أن تفعل العجائب بالناس — أن تخلق منهم جبابرة وفلاسفة وملائكة — أن تعتقهم من حدود الساعات والمسافات ، وأن تجمع بين أفكارهم وقلوبهم ، فلا يستعصي عليهم سرّ ، ولا ينكّد عيشهم عدوّ . نعم . نعم . لقد كان للراديو أن يفعل كلّ ذلك — وأكثر من ذلك . ولكنه بات في أيدي الناس مباءةً للبراغيث . وبات الأثير الذي تستخدمه هذه الآلة مطية للبراغيث . فيا لخجلي من الأثير !

قلبي . غُلبي . عيني . ليلي . دموعي . ضلوعي . يا خوي . يا بوي . خدّي . وردي . روحي . جروحي . آه . وآه . الخ الخ . . . طربٌ وأيّ طرب ! ! إنّه القيْء يا صاحبي . إنّه الغثاثة والجبانة . إنّه الخنوثة والميوعة . انّه

الروح وقد بلغت التراقي . إنّه الإفلاس والهزيمة . إنّه البراغيث – البراغيث – البراغيث . لا كان هذا الطرب . ولا كانت البراغيث .

ألعلّنا ما سخّرنا لخدمتنا الأثير إلاّ لنذيع به ضغائننا وأحقادنا ، وخساساتنا ورجاساتنا ، وكلّ ما بنا من قلق وخوف ، وضعف ونذالة ؛ وإلاّ لنغرق الناس بدموعنا ، ونصمّ آذانهم بآهنا وأوّاهنا ؟ ألم يبقَ في الأرض أمّهات يحبلن ويلدن ويرضعن ويغنين أطفالهن أغاني المحبّة المتفانية ؟ هل ماتت الرجولة ، وتعقمت الفضيلة ، وخرس الصدق ، وتلاشت الكرامة ، وتحجّرت الرحمة ، وفطس الحقّ ، وانشلّ الإيمان ، وانطوى الجمال ؟ أما من شموس تشرق ، ونجوم تتلألأ ، وشجر يورق ويثمر ، وزهر يفوح بالطيب ، وعصافير تغرّد ، وأنهار تهدر ، وبحار ترغي وتزبد ؟ أما من رجال يقتحمون المجهول ويستطيبون الموت في سبيل الغلبة عليه ؟

فعلامَ لا يذيع الناس للناس أخبار فتوحاتهم في دنيا المعرفة والمحبة والحرية والجمال والتعاطف والتآزر والإيمان بأنفسهم إيماناً لا تزيده الخيبة إلاّ رسوخاً ومضاء ؟ إنّهم لو فعلوا ذلك لأعطوا كلّ كسيح جناحين ، وكل أعمى عينين ، وفتحوا لكلّ قانط كوى فسيحة من الرجاء الذي لا يُقهر .

وإذ ذاك لما بقي في الأرض من لا نصيب لهم منها إلاّ العناء والشقاء . ولانفرجت آفاق الناس فما بدت لهم الحياة كما لو كانت شبكة هائلة من الأحابيل والأكاذيب ، والترهات والسفاسف ، يصطادون بها بعضهم بعضاً ، فلا يصطادون في الواقع غير الموت .

لا . لا . يا صاحبي . لا لنقتل الصدق والرجولة والحق والحريّة والمحبّة اخترعنا الحرف والراديو . بل لنجدّد بهما إيمان الإنسان بالإنسان وبحقّه في الحقّ والحريّة والمحبّة . ولكن الناس آثروا أن يجعلوا من الحرف والراديو مباءة براغيث . البراغيث لا تميت . ولكنّها تؤذي . تؤذي أكثر من الموت . أكلوني . أكلو ــ ني . . . أكلوني البراغيث !

قال الرجل ذلك وفي لمحة الطرف فتح الباب وقفز إلى الخارج من غير أن يودّعني بكلمة .

الأديب والناقد

شئت أن أحدّد النقد بكلمات ثلاث لقلت إنّه عمل الحياة الدائم . فهي ما زرعت الفضاء شموساً وأقماراً وكوكبات ومجرّات ، ولا فجّرت من أديم الأرض هذه الأشكال ما بين سائل وجماد ونبات وحيوان وإنسان ، ولوّنتها بسائر الألوان ، ولا ربطت كلّ ذلك بنظام شامل مانع لتقبع من بعدها في زاوية من المسكونة ، وتنظر إلى زرعها بعين الرضى ، ثمّ تقول معتزّة بما صنعت : « إنّه حسن جدّاً » . فلو أنّه كان أقصى ما تستطيعه أو تتوخّاه لما أمعنت فيه تبديلاً وتغييراً ، وتحريفاً وتحويراً . فما تفتتت نجوم وتكورت نجوم ؛ ولا انقرضت أجناس وبرزت إلى الوجود أجناس ؛ ولا هاج بركان ، وطغى بحر ، وزمجر إعصار ، وقرقر زلزال ؛ ولا كان انطلاق بعد انغلاق ، وانغلاق بعد انطلاق ، أو نمو ينتهي إلى انحلال ، وانحلال ينتهي إلى نمو ؛ ولا كان « هذا الحيوان المستحدَث من جماد » الذي حار في نفسه على قدر ما حارت البرية فيه .

لو كان لنا أن نُجري على هذه الحركة الكونيّة التي

لا تنقطع ولا رفة جفن مثل الأحكام التي نجريها على حركاتنا البشريّة لقلنا إنّها ناجمة عن قلق وشوق في آن معاً . فنحن لا نأتي حركة من الحركات – عفوية كانت أو عن سابق قصد وتصميم – إلاّ نتيجة لعدم اطمئناننا إلى وضع نحن فيه ، وإلاّ تشوّقاً منّا إلى وضع أفضل منه .

ما هو الجوع ؟ إنّه قلق الجسم إذ يشعر بحاجته إلى الطعام . وهذا القلق يرافقه الشوق إلى الطعام والسعي إليه . حتّى إذا ظفرنا به انتقلنا إلى قلق جديد هو قلق الهضم ، وشوق جديد هو الشوق إلى التخلّص من بقايا الطعام التي لا قِبَلَ لنا بهضمها . وما إن تنتهي الدورة حتّى تعود لتبتدىء من جديد . كذلك هي حالنا مع العطش والريّ ، والتعب والراحة ، والنوم واليقظة ، وكلّ عمل نعمله ، وفكر نفكره ، وكلمة ننطق بها . فما من حركة نأتيها إلاّ كان الدافع إليها قلقنا من حالة نحن فيها وشوقنا إلى حالة أفضل منها .

في مثل هذا العالم الذي كلّه قلق وشوق يعيش هذا « الحيوان المستحدَث من جماد » . فلا غرو أن يكون هو كذلك في شوق وقلق دائمين . إذ لا مندوحة له عن مطاوعة الكون الذي هو بعض منه وعنصر متمم لعناصره . لكنّه لا يعيش في هذا العالم العجيب نظير ما تعيش قطرة الماء في البحر ، أو نسمة الهواء في الفضاء ، أو عشبة في مرج ، أو

ضفدع في مستنقع ، أو بومة في خربة . فهو يملك في عيشه فوق ما تملكه سائر الكائنات حواليه من مقدرة على التفكير والتمييز والخلق والتخيّل والإرادة والإفصاح عن هذه جميعها بكلمات وإشارات تؤدي معاني بذاتها . فهو من هذا القبيل نسيج وحده ما بين كلّ شركائه في الأرض .

ما كان الإنسان في حاجة إلى التفكير والتمييز والخلق والتخيل والإرادة والإفصاح عن هذه جميعها لو لم يكن العالم الذي يسكنه عالماً ازدوج ثمّ تناقض كلّ ما فيه . فذكرٌ وأنثى ، وبعيد وقريب ، وطويل وقصير ، وحارّ وبارد ، وثقيل وخفيف ، وأبيض وأسود ، وحلو ومرّ إلى آخر ما هنالك من متناقضات . ولا كان القلق والشوق لولا الحاجة الدائمة إلى الاختيار ما بين هذا الشيء ونقيضه ، أو ذلك الفكر وعكسه ، أو هاتيك العاطفة وأختها التي على الطرف الآخر منها . فنحن مدعوون في كلّ لحظة من وجودنا إلى التفكير والتمييز والاختيار — أي إلى النقد .

إن طفلاً يبكي لطفل يحتجّ بصوته ودموعه على الحالة أو الحالات التي سببت له البكاء ، سواء أكان المسبب برغشة أو إنساناً . واحتجاجه ضرب من النقد .

وإن تلميذاً يهرب من مدرسته إلى البريّة لتلميذ يقول لمعلّمه : إني أوثر خوار الثور ، أو خرير الساقية ، أو صوت

العصفور على صوتك . وأوثر مدرسة الغابة والحقل والوادي على مدرستك . فقوله نقد كذلك .

وإنّ شيخاً هرماً يتبرّم بضعف بصره وركبتيه ، وبرجفة في يديه ، وطنين في أذنيه ، ودوار في رأسه ، وقشعريرة في دمه لشيخ يلوم القدرة التي أوصلته إلى ما هو فيه . ولومه نقد كذلك .

وإن شاعراً يسأل :

لماذا السفينة تطلب ريحاً ومن تحتها أبحر طائلة ؟

وفي القفر عطشى يريدون ماء

وريح السَّموم بهم نازلة .

لماذا التناسل ، والنسل ندري أن الحياة له قاتلة ،

أكيما نزيد المقابر رمساً ، ونصغي إلى أنّة الثاكلة ؟

إنّ شاعراً يطرح مثل هذه الأسئلة لشاعر يفضي بما في نفسه من قلق تجاه أمور يجهلها ويتشوّق إلى معرفتها ، فهو شاعر ناقد .

وها هي صحافة العالم لا يشغلها شيء مثلما يشغلها نقد ما في العالم من أوضاع سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وأخلاقيّة وسواها . فالنقد دينها وديدنها . إذا تخلّت عنه فقد تخلّت عن وجودها . كذلك قولوا في جميع علوم الناس وفنونهم ، فهي من أجلّها حتى أقلّها قيمة ضروب من النقـد المنبثق عن

الشوق والقلق .

ثمّ ها هي ألسنة الناس في كلّ زمان ومكان لا يلذها أمر من الأمور على قدر ما يلذها التحدث عن معايب الآخرين ومحاسنهم . ومن منّا لم يُبتلَ بجماعة أو جماعات ينفقون الساعات الطوال في تشريح الناس لا يوفرون قريباً أو غريباً ، ولا يعفّون عن صديق أو عدوّ ؟ إنّهم النمّامون والمغتابون والثرثارون ، ونميمة هؤلاء وغيبتهم وثرثرتهم ضروب من النقد كذلك . فهم ، من حيث يدرون ولا يدرون ، يفرّجون عن قلق أو عن كربة في نفوسهم ويفضحون فقرهم وشوقهم إلى صفات أحسن من تلك التي ينتقدون .

والآن إذا عدنا من بعد هذا التمهيد إلى الكاتب والناقد — وهما موضوع الحديث — وجدنا أن ذلك وهذا يعملان بدافع من القلق والشوق . فالكاتب في ما يكتب إنّما يعبّر عن قلق تثيره فيه حواسه الخارجيّة والباطنيّة من أوضاع بعينها ، وعن شوق إلى التخلّص من ذلك القلق . ويأتي الناقد ليعبّر عن القلق الذي يثيره فيه عمل الكاتب ، وعن شوقه إلى الانعتاق من ذلك القلق .

وإذ ذاك فعمل الناقد هو نقد النقد . وهو مدين به لعمل الكاتب . فلولا الكاتب لما كان الناقد . ولا يصحّ العكس وذلك هو الفارق الأوّل والأهم ما بين الاثنين .

وأنا عندما أقول في الكتابة إنّها – كأي عمل بشري آخر – تصدر عن قلق وشوق لست أريد أن يتبادر إلى الذهن أنّها عمليّة بسيطة . بل هي عمليّة في منتهى التعقيد . فلا القلق ولا الشوق من المشاعر التي يسهل فهمها وتحليلها . فنحن إذ نحس القلق لا نحسه بالعين دون الأذن ، أو بالأذن دون الأنف واليد واللسان . إنّنا نحسه بكلّ قطرة من دمائنا ، وكلّ نبضة من قلوبنا ، وكلّ جارحة من جوارحنا – نحسّه بكلّ ما في جهازنا البدنيّ من دقائق لا تُدرَك ولا توصَف ، مثلما نحسه بأفكارنا وأذواقنا وميولنا وخيالنا وجميع ما يدخل في تركيب جهازنا المعنوي أو الروحي . كذلك هي حالنا مع الشوق . وكلا الشوق والقلق يتفاوت عمقاً وعنفاً ومدى بتفاوت البواعث التي تبعثه ثمّ بتفاوت القوى التي تعيه وتتأثر به . وهذه القوى هي العقل والوجدان والخيال والذوق والإرادة . وهي لا تتساوى أبداً حتى عند اثنين من الناس . فكيف بها تتساوى عند جميع الناس ؟

من هنا هذا التنويع الدائم في ما نقول ونكتب ونعمل . فما اتّفق اثنان يوماً من الأيّام في القلق والشوق ، وفي كيفيّة التعبير عنهما ، حتّى وإن وضعناهما ، أو وضعتهما الحياة ، في عين الظروف والأحوال . وكيف يتفقان وجسم ذلك غير جسم هذا ، وعقله غير عقله ، ومزاجه غير مزاجه ، وذوقه

غير ذوقه ، وميزان الخير والشرّ عنده غير ميزانه ، وإرادته غير إرادته ؟ إن هذه جميعها تتكوّن وتنمو فينا عن وعي وعن غير وعي منّا . لأنّها نتيجة تفاعل دائم بيننا وبين سائر الكائنات – منظورها وغير منظورها . فلا سبيل لنا إلى سكبها في قالب واحد . لئن كان لنا أن نتحكّم في عقولنا وأذواقنا وإرادتنا وميولنا إلى حدّ ما ، فمن أين لنا أن نتحكّم في تكوين أجسادنا وما نحن هيّأناها وهيأتها لنا قدرة غير قدرتنا ؟ ثمّ كيف لنا أن نتحكم في الأرض وما عليها والسماء وما فيها – واقلها يفرض وجوده وسلطانه علينا فرضاً ؟ فأيّ عجب إذ ذاك أن لا نتساوى في الشوق والقلق وفي كيفيّة التعبير عنهما ؟

يؤلف أحدهم رواية أو أقصوصة أو مسرحيّة ، أو ينظم قصيدة ، أو يدبج مقالة ، فلا هو يدري ولا نحن نستطيع أن نحكم كيف فعل ذلك ، ولماذا ، فدوافع الشوق والقلق التي من وراء عمله هي في الغالب أعقد من أن يحلّلها فكره أو قلمنا . فقد تكون رغبةً منه في الشهرة أو طمعاً في المال ، أو حبّاً بالارشاد أو ترضية لصديق أو حبيب ، مثلما قد تكون مخاضاً كمخاض الحامل . فليس علينا أن نتقصى الدوافع التي دفعته على الكتابة ، ولا أن ندينه لأنّه كتب . ولنا إذا نحن شئنا أن نقرأ ما كتب . فإذا قرأنا فيه قلقاً يشبه بعض ما يقلقنا ، أو شوقاً يضارع بعض أشواقنا ، ثمّ وجدناه يعبّر

عن ذينك القلق أو الشوق تعبيراً نصدّقه ونطمئن إليه ، أو نتمنى لو يكون لنا مثله ، شعرنا بشراكة الحياة بيننا وبينه وقلنا : « بارك الله فيه . إنّه لحم من لحمنا . ودم من دمنا . ولقد ترجمَنا إلى أنفسنا . فكان خير الترجمان » .

إلاّ أنّ من الناس من يقرأون ولا يفهمون كلّ ما يقرأون أو يفهمون عكس ما يقرأون . فيمرّون باللؤلؤة الفريدة وكأنّهم يمرّون بأكرة من زجاج . أو يمرّون بأكرة من زجاج فيحسبونها لؤلؤة فريدة . إن لمثل هؤلاء قام النقد والناقدون .

قلت في بداية هذا الحديث إن النقد هو عمل الحياة الدائم . ولا بدّ من القول هنا إن الفرق بين نقد الحياة ونقد الناقدين منّا وفينا لفرق شاسع جدّاً . فالحياة تنقد ذاتها بذاتها . إذ ليس ما هو خارج عنها لتوجه إليه نقدها . ولأنّنا بعض من ذاتها فهي تنقدنا كذلك في كلّ لحظة من وجودنا . في حين أنّنا ننقد الغير وقلّما نوجّه نقدنا إلى أنفسنا. ومن ثمّ فالمقاييس التي تستند إليها الحياة في نقدها لذاتها هي غير المقاييس التي نستند نحن إليها في نقدنا الغير . فما هي مقاييسنا بالنسبة إلى مقاييس الحياة ؟

الجمال والحق والخير – هذه الكلمات الثلاث تتردّد على أقلام الكتّاب والنقّاد وألسنتهم كلّما حدّثوا عن الأدب

وقيمته ورسالته . وإذن فالناقد الذي يتعرّض لأثر من الآثار الأدبيّة عليه أن يعرف الحقّ وأن يميّز الخير وأن يحيط بسائر صفات الجمال ، كيما يحقّ له أن يصدر حكمه في ذلك الأثر . إلاّ أن مثل هذا الناقد لا وجود له على الإطلاق . إذ ليس في الناس من يعرف الحقّ كلّ الحقّ ، ويميز الخير كلّ الخير ، ويحيط بالجمال كلّ الجمال . فنحن ما نزال من الإدراك في عالم النسبة . فما كان حقّاً بالنسبة إليّ قد يكون باطلاً بالنسبة إليك . وما كان خيراً عندك قد يكون شرّاً عندي . وما كان جمالاً في عيني قد يكون قباحة في عين جاري . وعندئذ فمقاييس الناقد هي مفاهيمه الخاصة للحقّ والخير والجمال . وهذه تسمو وتنحطّ على قدر ما يكون نصيب الناقد من التفتّح الروحي ، والاتزان الفكري ، وسلامة الذوق ، وحدّة الذهن ، وصفاء العين والقلب ، واتّساع الخبرة بآثار الإنسان وأخباره منذ أقدم العصور حتى الساعة .

إن على الناقد أن يخلق مقاييسه من نفسه وعليه ، إذا كانت له المقدرة أن يحمل القارىء والكاتب الذي ينقده على احترامها والإيمان بها . ولن يتسنى له ذلك إلاّ إذا كان أنقى بصيرة ، وأوسع آفاقاً ، وأسلم ذوقاً ، وأصدق نيّة ، وأمضى عزماً ، وأشدّ ثقة بنفسه وبمقاييسه من قارئه ومن منقوده .

أمّا إذا كان في كلّ ذلك على مستوى واحد مع قارئه ومنقوده فنقده لا يزيد عن أن يكون ضرباً من التنبيه والتسجيل . وأمّا إذا كان دون مستوى قارئه ومنقوده فنقده تعب مهدور ودواء لمن ليس يشكو أيّ داء . بل إنّه في مثل تلك الحالة ، قد يكون تحقيراً له وتشهيراً . وما أكثر ما يحقر بعض النقاد أنفسهم ويشهّرونها من حيث يقصدون تحقير الغير وتشهيرهم .

أجل . إن كلّ ما يفعله الناقد في نقده هو أن يعرض نفسه بما فيها من قلق وشوق ، وذلك في عرض الكلام عن غيره . فقد يقلقه أشدّ القلق أن يقع في كتاب ما على مجرور بحرف اللام بدلاً من الباء . فيثور ثائره ولا يهدأ باله حتّى يعلن الملأ أنّه أرسخ قدماً في علم النحو من مؤلّف الكتاب . وان اللام لا تجوز في هذا المقام . وتجوز الباء .

وثورته هذه قد تعميه عن حسنات جمّة في الكتاب الذي بين يديه . ومن جهة ثانية ، قد تشوقه من شاعرٍ براعة في وصف الثغر أو النهد أو الردف ، فيمضي يكيل المديح كأنّه حاتم الطائي يوزع اللحم على الجياع والدراهم على الفقراء . ويعميه الثغر أو النهد أو الردف عمّا قد يكون في الديوان من فحش وفجور وإسفاف خلقي . كأن هذه كذلك من مقوّمات الحقّ والخير والجمال .

ما من شكّ في أن مستوى النقد يرتفع ويهبط بارتفاع

مستوى النتاج الأدبي وهبوطه . فالادباء الكبار يمهّدون الطريق للنقاد الكبار . ولا أعكس فأقول إن النقاد الكبار يمهدون الطريق للأدباء الكبار . فالعبقريّة الحقّة تشقّ طريقها بقدرتها لا بما يقوله فيها مادح أو قادح . وهل في استطاعة نقاد العرب مجتمعين أن يخلقوا متنبياً واحداً أو أن يحولوا دون خلقه ؟ أم هل في استطاعة جميع نقاد الفرنجة أن يأتونا بشكسبير آخر ؟ وإذا قام شكسبير آخر فهل في مستطاعهم أن يطفئوا الشعلة التي في صدره ؟ ولو أن كلّ من في الأرض من نقدة حاولوا أن يجعلوا من شويعر شاعراً ومن كويتب كاتباً ، أو أن يسدّوا السبل على الكويتبين والشويعرين فلا يقتحمون حومة الأدب ، لباءوا بالفشل من غير شك . أمّا كبار الكتّاب والشعراء فقد خلقوا نقدة كثيرين ما بين كبير ومتوسط وصغير . مثلما خلقوا الكثير من المقلّدين والطفيليين .

حيثما كثرت القمم الشامخة قلّت الدهشة للتلال . وحيثما كانت الأنهار الكبيرة قلّت قيمة السواقي . أمّا حيث لا قمم شامخة ولا أنهار كبيرة فالكثبان والسواقي تبدو كما لو كانت أبدع آيات الله في خلقه . والمثل العامي يقول : « من قلّة الرجال سمّوا الديك أبو عليّ » . وعندنا من كرم المولى كثبان وسواقٍ كثيرة . فلا عجب أن يكون نقدنا حتّى اليوم في مستوى الكثبان والسواقي ، ثمّ أن يكون لنا في كلّ يوم

كاتب « كبير » وشاعر « عظيم » !

لست أريد أن أقلّل من قيمة الناقد وعمله فأقول إن وجوده وعدم وجوده سيّان . ولكنني لا أريد كذلك أن أبالغ فيها فأقول إن النقد دعامة لا يقوم الأدب إلاّ بها وعليها . ففي استطاعتنا أن نؤلّف الروايات والأقاصيص والمسرحيات ، وأن ننظم القصائد ونحبر المقالات ، وأن نخطب في شتّى الموضوعات ثمّ أن نترك أمر تقدير ذلك كلّه للقارىء والناظر والسامع والزمان . فإن أخطأ تقدير القارىء والناظر والسامع لن يخطىء تقدير الزمان في المدى الطويل . وإذا كان من الناقدين من بلغوا مرتبة عالية من الاحترام والتقدير أمثال « سنت بيف » و « تين » عند الفرنسيس ، و « والتر بايتر » و « جان رسكين » عند الانكليز ، و « بلينسكي » عند الروس ففضل هؤلاء في أنّهم كانت لهم في نفوسهم كنوز من الأفكار والأحاسيس وبراكين من الأشواق . هذه الكنوز والبراكين ما تكشّفت ولا تفجّرت إلاّ لدى احتكاكها بكنوز وبراكين مماثلة لها في نفوس بعض العباقرة من الشعراء والكتّاب . فهي ثمينة في ذاتها لا في كونها جاءت تعليقاً على هذا الكتاب أو ذاك . والذي يزيد في أثمانها أنّها برزت إلى الوجود في أكسية تكاد تبهر العين بما فيها من دقّة ومتانة في النسج والحبك ، وتكاد تلتهب بما فيها من حرارة ونور .

إنّ الناقد الذي لا يعيش على حساب غيره كما تعيش الطفيليات على بعض النباتات والحيوانات بل يعطيك من وهج روحه مقاييس للحقّ والخير والجمال تستهويك وتفرض احترامها عليك لهو الناقد الذي يرفع النقد إلى مرتبة الفنّ العالي ، والذي يُسَرّ الأدب بأن يتبنّاه ويعتزّ به . فهو مرشد من مرشديه ، ومنارة من مناراته ، وبانٍ من بُناته . وكثيراً ما يكون نقده من قوّة الإشعاع والاقناع بحيث يقضي قضاء مبرماً على اتجاه قديم في الأدب ويدفع به في اتجاه جديد ، وبحيث يغدو الزعيم الذي بفضله تتفتّح وحواليه تلتفّ المواهب الفتيّة في الأمة . إنّه روح الثورة في الأدب . والأدب الذي لا تهزّه الثورات من حين إلى حين لأدب همدت ريحه ، وشحّ بصره ، وتصلّبت شرايينه ، فهو إلى الموت أقرب منه إلى الحياة .

أمّا الناقد الذي لا يجد لقلمه مادة إلاّ في كتاب يؤلفه غيره ، والذي يحصر همّه في الكشف عمّا في ذلك الكتاب من معايب ومحاسن — حسبما تتراءى له المعايب والمحاسن — فناقد نفعه للأدب قليل مهما بلغ من براعة في السبك والسخرية والتهكّم . إنّه كالدجاجة التي لا تبيض ، ولكنها تقوقيء كلّما باضت رفيقة من رفيقاتها . أو كبعض الطيور التي لا تبني لنفسها أعشاشاً ، ولكنها تضع بيضها في أعشاش

غيرها . وأمثال هذا الناقد هم الكثرة الساحقة بين النقاد في بلادنا العربيّة وفي كلّ البلاد . انهم لا يخلقون ولا يوجهون ولا يثورون . ولكنّهم يضجّون . وضجتهم لا تمضي بغير أثر . فقد تكون بمثابة إعلان للكتاب أو للكاتب الذي ينقدون — أو لأنفسهم : فما أكثر ما يتهافت القراء على كتاب تافه لأن النقاد أثاروا حوله ضجة ، وما أكثر ما يُعرضون عن كتاب قيم لأن النقاد أعرضوا عنه .

ويمشي الزمان شوطاً ، وإذا بالكتاب التافه يغدو طعاماً للفأر أو للنار ، أو مسكناً للعث والغبار . وإذا بالكتاب القيم الذي أعرض النقاد عنه يشقّ طريقه على مهل ، ويشقه بعزم وثبات ، وبرغم أنوف النقاد . وما ذلك إلاّ لأنّه غنيّ بجراثيم الحياة ، ولأن الكتاب التافه الذي هلّل له النقاد وكبروا غنيّ بجراثيم الموت .

لست أجهل أن الحديث عن النقاد ، كالحديث عن الكتّاب ، حديث ذو شجون كثيرة ووجوه كثيرة . إلاّ أنّني ، وقد قلت في النقاد ما قلت ، أريد أن أقول كلمة بعد في العلاقة بين الكاتب والناقد : ما هي في الواقع وكيف يحسن أن تكون .

الشائع عن النقاد أنّهم قلّما اتفقوا على رأي واحد في تقديرهم للأثر الواحد . ولا عجب فهم لا ينظرون إلى الأمور

بمنظار واحد . والشائع عن الكتّاب أنّهم يتلهّفون إلى كل كلمة تقال في مؤلّفاتهم . ولكنّهم يريدونها كلمة نجلاء لا عمياء .

فإن جاءتهم مذمّة حيث كانوا يتوقّعون العكس فاضت مرائرهم ، وثار ثائرهم ، وتولاهم الشعور بأن لا بدّ من ردّ الأذى بالأذى ، ومحو المذمّة بالمذمّة . وهكذا ينطلقون في نقاش لا طائل تحته مع الناقد الذي غمز من قناتهم . وإن هم لم يناقشوه أعرضت عنه قلوبهم في كلّ حال فباتت وكأنّه الشوكة في جنبهم أو الصلّ في دارهم . وردّ الفعل هذا ، إذا نحن غفرناه للكتّاب الناشئين شقّ علينا كثيراً أن نغفره للكتّاب الذين لهم في الأدب قدم راسخة وقامة بعيدة الظلّ . ولقد عرفت من هؤلاء من إذا عابهم عائب أو لامهم لائم ، أصيبوا بما يشبه الكَلَب . فلا يحلو لهم أكل ولا نوم . ولا يرضيهم إلاّ أن ينهشوا الذي عابهم أو لامهم بكلمة . وإذا مدحهم مادح ، ولو بما ليس فيهم ، ماعت قلوبهم في صدورهم وأشرقت أساريرهم وطفرت دموع الفرح من عيونهم . حتى العبقرية لا تصفو من الأكدار — ولا تخلو من الرواسب !

وعرفت أدباء ناشئين ، وأدباء بين بين ، يؤذيهم النقد إذا جاء في غير صالحهم إلى حدّ أن يقضي أو يكاد على مواهبهم التي لم تستكمل بعد نضجها . فعلاقتهم بناقديهم

لا يمكن في أيّ حال ، أن تكون علاقة مودّة واحترام متبادل .

إنّ علاقة الكاتب بالناقد هي على الإجمال علاقة قلق وحذر وحرب ، قد تكون سخنة وقد تكون باردة . وكان من الأحرى أن تكون علاقة اطمئنان وثقة وسلام لو صفت نية الناقد ، واستقامت موازينه ، وأخلص لنفسه ولعمله . ولو اتّسع أفق الكاتب وصدره ، واستأنست نفسه بما يكتب شاعرة بأنّها ما كتبته إرضاء لفلان ونكاية بفلان ، أو حبّاً بشهرة أو بمال ، بل خدمة للحقّ والخير والجمال كما تفهم الحقّ والخير والجمال ؛ وانّها قد استخدمت في كتابته منتهى ما تملك من قوّة الفكر والخيال ، والوجدان والبيان ، فما همّها إذ ذاك ما يقوله فيه ناقد أو قارىء ؟ ألعلّ الناقد والقارىء يفهمان دخيلتهما خيراً ممّا تفهمها هي ؟ وكيف ترضى ، وهي الواثقة من صدق ما تقول ، أن تقيم الغير حَكَماً على صدقها ؟ إن لها مقاييسها وموازينها . وهي ما اختارتها إلاّ بعد جهد وعناء . فأي بأس إذا اختلفت هذه المقاييس والموازين عن مقاييس الغير وموازينهم ؟ ومن يدري ؟ فقد تندثر مقاييس الغير وموازينهم وتبقى مقاييسها وموازينها .

هكذا يجدر بالكاتب الذي يكتب ويعرف قيمة ما يكتب أن يخاطب نفسه . فلا يزعجه ذم ناقد ولا يستخفه مدح قارىء . وعلى الأخص إذا هو أحسن نقد نفسه . فناقد نفسه في غنى

عن نقد الناس . وهو يطاوع في ذلك الحياة التي لا تنفك تحاسب نفسها في كلّ طرفة عين . فهي الناقد الأكبر والمبدع الأعظم .

وإنّه لمن حسن حظّكم وحظّي وحظّ جميع الكائنات التي تستطيب البقاء ، مع كلّ ما فيه من قلق وشقاء ، أن الحياة لا تأبه بقيلنا وقالنا ، وأن لا وجه شبه على الإطلاق بين مقاييسها في النقد ومقاييسنا . وإلاّ لما كان لنا في الوجود من نصيب . فهل في مستطاعكم أن تتخيّلوا ماذا كان يحلّ بالناس وسائر الكائنات لو كانت لكلّ منّا الحرية وكان له السلطان ، أن يطبق على الطبيعة مقاييسه الخاصة في الحقّ والخير والجمال ؟ لقد كنّا نبدأ ، أوّل ما نبدأ ، بإبادة جميع الحشرات والنباتات والحيوانات التي تزعجنا إمّا بحركاتها ، أو بأصواتها ، أو بأشكالها ، أو بألوانها . فلا نبقي على دودة أو ذبابة أو برغشة أو بقة أو قملة أو زنبور أو عقرب أو حيّة . ولا على بومة أو وطواط أو غراب . ولا على ثعلب أو ذئب أو ضبع أو ظربان . ولا على عشبة أو شوكة أو أيّ نبتة وجودها يؤذي عيوننا وأنوفنا أو يؤذي الزرع في حقلنا أو الزهر في حديقتنا أو الأشجار في بستاننا . وننتهي بأن نزيل من طريقنا جميع الذين آراؤهم تخالف آراءنا ، وأذواقهم لا تأتلف وأذواقنا ، وصورهم لا تصادف استحساناً ورضى في عيوننا .

وقد تمادى بنا الغيرة على الحقّ — حقنا ، وعلى الخير —

خيرنا ، وعلى الجمال – جمالنا ، فنمضي نشذب حتّى الشموس والأقمار والنجوم على هوانا . فهذا نجم لا هداية لنا فيه . فلنمحقه . وهذه شمس تحرقنا . فلنطفئها . وهذا قمر يضيء ساعة لا نريده أن يضيء . ولا يضيء ساعة نريده أن يضيء . فلنطرحه في هاوية العدم . ونرتد بعد ذلك إلى هذا الكوكب الصغير الذي هو أرضنا ، فنرفع هنا وادياً ، ونخفض هناك جبلاً ، وهنالك نجفف بحراً ، ونسدّ منافخ الرياح اللافحة بحرّها وبردها ، ونلجم البرق ، ونخرس الرعد ، ونحذف من الفصول ما نشاء ، ونبقي ما نشاء ، ونعدل حرارة الشمس وسرعتها حسبما يحلو لنا في هذه اللحظة أو تلك من وجودنا .

إن مجرّد التفكير في مثل هذه الافتراضات ليبعث القشعريرة في أجسادنا وينشر الظلمة في نفوسنا . فمن الأكيد أنّه لو صحّ لكلّ منّا أن يطبق على الكون مقاييسه في الحقّ والخير والجمال لما بقي هنالك من كون ، ولكان العدم نهايتنا ونهاية كلّ شيء .

أما قصدي من هذه الافتراضات فليس أكثر من أن أبين لكم أن الأحكام التي نصدرها نحن على الناس والأشياء هي ، في الغالب ، أحكام مبتورة . لأنّها صادرة عن بشر ما اكتملت بعد معرفتهم للناس والأشياء ، وللغاية من وجودهم ووجودها ، وللأساليب التي تستخدمها الحياة معهم بغية الوصول بهم إلى تلك الغاية . فجدير بنا ، ونحن من المعرفة حيث نحن ، أن

لا نتصلّب في مفاهيمنا عن الخير والحق والجمال ، وأن لا نتحمّس لها إلى حدّ أن لا نترك مجالاً لسواها . بل علينا أن نجري في ذلك على السنن التي تجري عليها الحياة في الطبيعة من حولنا .

وها هي الطبيعة تهتمّ بالقملة والنملة ، وبالحرباء والخنفساء اهتمامها بالفراشة والنحلة ، وبالأسد والغزال . ولا تحنو على النسر والهزار فوق حنوها على الخفاش والغراب . ولا تمطر على الأرزة والسنديانة وتحبس غيثها عن العوسجة والعليقة . ولا تشرق شمسها على العمالقة دون الأقزام ، وعلى الأبرار دون الأشرار . فحقّها للكلّ ، وخيرها للكلّ ، وجمالها للكلّ . وهي إذا ما غيرت أو بدلت في أوضاعها وأشكالها وألوانها فحبّاً بالكلّ وغيرة على صالح الكلّ . وهي لا تبصر ذاتها أعضاء وأجزاء مبعثرة . بل وحدة متماسكة ، متآلفة ، متآخية ، أقلّ ما فيها يتمّم أجلّ ما فيها .

إن الأشجار الباسقة وحدها لا تؤلف الغابة . بل لا بدّ في الغابة من أدغال وأشواك ولبلاب . وإن البناء لا يقوم بالحجارة الكبيرة وحدها . بل لا بدّ مع الكبيرة من صغيرة ، ولا بدّ من الطين . والصورة لا تتمّ بالنور وحده . بل لا بدّ مع النور من ظلّ .

وهكذا الأدب يستحيل أن يكون أدب عباقرة لا غير .

بل لا بدّ مع العباقرة من أنصاف عباقرة ، ومن كتّاب وشعراء ما زارتهم العبقريّة حتى في الحلم ولا مسّتهم بنَفَس من أنفاسها . لا بدّ مع المبدعين من مقلّدين ، ومع النسور من خنافس ، ومع البلابل من غربان . وإذ ذاك فما هو عمل الناقد ؟ أليس من الأفضل له وللأدب أن يصرف مواهبه في الانتاج ، وأن يهتمّ بنقد ما ينتج بدلاً من الاهتمام بنقد ما ينتجه الغير ؟ وفيمَ ضيق صدره بما يقوله ويكتبه الغير ؟ ولو أنّه تعلّم من الطبيعة لاتسع صدره لمن يقول : « نحن بنو العباس نجلس على الكراسي » اتساعه لمن يقول : « خفف الوطء ما أظنّ أديم الأرض إلاّ من هذه الأجساد » .

أجل . فلنخفف الوطء . لا لأنّنا إذ نمشي نمشي على أجساد الغير . بل لأنّنا نمشي على أجسادنا وأجسادهم ، وعلى أرواحنا وأرواحهم كذلك . وليكن همّنا الأوّل والأخير أن نطق بالحقّ كما نفهم الحقّ ، وأن نعمل الخير كما نفهم الخير ، وأن نخدم الجمال كما نفهم الجمال . ثمّ أن نترك للغير مثل ما نترك لأنفسنا من الحرية في قول ما يراه حقّاً وخيراً وجمالاً . والحياة كفيلة بغربلة ما نقول ونفعل . فلها وحدها القول الفصل والحكم الأخير .

أصلح نفسك يصطلح العالم

كيفما اتجهت في هذه الأيّام سمعت أصواتاً تطالب بالإصلاح . وسمعت في نبراتها الكثير من الحدة والالحاح . فكأن الناس من كلّ أمّة ، وفي كلّ مكان ، قد ضاق صدرهم بحالة هم فيها ، ونفد صبرهم في انتظار حالة أفضل منها . لا فرق من هذا القبيل بين بدوي وحضري ، أو بين أبيض وزنجي ، أو بين أمة متقدمة وأمة متخلفة . مثلما لا فرق بين كبير وصغير ، وغني وفقير ، وعالم وجاهل . فالكلّ يشعر أن في حياته التواء لا بدّ من تقويمه ، ونقصاً لا مناص من سده ، وخللاً لا مندوحة عن إصلاحه . والكلّ واثق كلّ الثقة من أن الالتواء والنقص والخلل في حياته تأتيه من الغير لا من نفسه . ولذلك لا ينفك يتبرّم بالغير ويعمل جاهداً على إصلاحه . أمّا نفسه فلا يحاسبها في كثير أو في قليل .

هكذا يتبرّم الآباء بالأبناء ، والأبناء بالآباء . ويتبرّم التلميذ بمعلّمه ، والمعلّم بتلميذه ، والمحكوم بحاكمه ، والحاكم بمحكومه ، والعامل بصاحب العمل ، وصاحب العمل بالعامل ، والمصلي بالإمام ، والإمام بالمصلي . وهكذا

قل في كلّ علاقة تقوم بين إنسان وإنسان ، أو بين جماعة من الناس . فالكلّ يعزو ما في حياته من ضيق وضنك ، واعوجاج وانزعاج إلى انحراف في سلوك الغير معه . وقط لا يعزوه إلى انحراف في سلوكه مع الغير . فهو وحده خدين الحقّ وصديقه . وغيره أسير الباطل والضلال . وسبيله وحده هو السبيل السوي . وكلّ ما عداه معوج وشائك ، ويؤدي حتماً إلى المهالك .

ولذلك لو فتشت عن السبب في ما يعانيه عالم اليوم من قلق وتشويش ، واضطراب وفوضى ، لوجدته يعود أوّلاً وآخراً إلى رغبة الناس في إصلاح غيرهم من دون أن يفكروا في إصلاح أنفسهم . فكأنّهم ما فطنوا بعد إلى حقيقة بسيطة وهي أن الاصلاح لا يقوم بغير الصلاح . فالجسم لا يكون صحيحاً إلاّ إذا كان كلّ عضو من أعضائه صحيحاً . والمجتمع الصالح لا يقوم إلاّ بأفراد صالحين . وها هم الذين في أيديهم زعامة العالم الدينيّة والتربويّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة يهتمّون بكلّ شاردة وواردة إلاّ بخلق أفراد صالحين .

فرجال الدين لاهون بالدنيا عن الدين . وهم يحسبونهم قائمين بواجباتهم على أتمّ وجه ما داموا يتمّمون فروضاً دينيّة معينة في أمكنة وأزمنة معينة . وقد فاتهم أن القناطير من

الصلوات والمواعظ تفوه بها الشفاه دون القلوب لا توازي مثقال ذرة من القدوة الحسنة . وأن الصلاح لا يتقيّد بطقس ولا بزمان ومكان . فمن فسدت أعماله وأفكاره ونياته ، وإن حسنت أقواله ، فسدت صلواته وعظاته في المعبد وخارج المعبد . ومن صلحت أعماله وأفكاره ونياته ، وإن ساءت أقواله ، كان له من قلبه معبد أينما كان .

ورجال التربية يصرفون جلّ اهتمامهم إلى تطبيق برامج لا أثر فيها للصلاح على الإطلاق . ويمنحون شهاداتهم بسخاء ، وفي حفلات علنية ، للطلاب الذين يجتازون امتحاناتهم في شتى المواد المقرّرة في البرامج . ولكنهم ما طبقوا يوماً من الأيّام على طلابهم برامج في الصدق والعفّة والأمانة والصفح والمحبّة وإنكار الذات . ولا هم امتحنوهم في هذه المواد أو منحوهم فيها شهادات . فقد خفي عنهم أن العلم مهما بلغ من الدقة والاتساع ، بقي جهالة في جهالة ما لم يكن الصلاح في لبه ونواته . ولكم خير شاهد على ذلك في العلم الحديث يستسلم بجملته إلى قوى الويل والدمار ويمسي عبداً ذليلاً للدرهم والدينار . ولو أنّه قام على الصلاح وحبّ الخير للناس لما وجدتم عالماً واحداً في خدمة شركة استثمارية ولا في خدمة وزارة حربيّة أو دولة استعماريّة .

أمّا رجال السياسة فهم في واد والصلاح في واد . وإن

عجبتم لشيء فاعجبوا لعالم يرجو الخير والخلاص على أيدي أناس لا دأب لهم إلاّ إثارة الحقد والبغض والحذر والتفرقة وحبّ الثأر ما بين شعوب العالم . مع التبجح المستمر بما هو نقيض ذلك على خطّ مستقيم . فهؤلاء ما علمتهم سياستهم بعد أن لا مصلح للعالم إلاّ الصلاح . وأن المكر لا يفتك إلاّ بالماكرين ، والدسائس لا تلد إلاّ الدسائس . وأن البغض لا يجمع ، والمحبة لا تفرق . وأن التنابذ تهلكة للمتنابذين ، والتعاون حياة للمتعاونين .

وأمّا رجال الاقتصاد فتائهون في مهمه من الاسعار التي لا تستقرّ على حال ، أكانت أسعار سلع أم أسعار نقد ، أم أجوراً عن خدمات يؤديها الناس للناس ، أو عن مساكن يستأجرها الناس من الناس . فما قولك بالذين يقبضون أجوراً باهظة من عرق الناس ودمائهم لقاء لا شيء ، أو لقاء سموم فتاكة يطبخونها للناس ؟

أجل . إنّنا لفي حاجة إلى رجال ونسوة صالحين أكثر منّا إلى مهندسين بارعين ، وشعراء مجلين ، ورسامين عبقريين ، ومحامين لامعين ، وأطباء حاذقين ، وواعظين مفوّهين ، وساسة محنكين . فما نفعنا من الهندسة نشيد بها ناطحات السحاب ، والجسور العظيمة ، والقصور الفخمة ، والأنفاق العجيبة ما دمنا عاجزين عن هندسة يوم واحد من حياتنا هندسة

تجعله خالياً من الغش والطمع ، والهم والوجع ؟ وأيّ خير لنا في تفكيك الذرة ما دمنا قاصرين عن تفكيك سلاسل الخوف والذل والفاقة والمرض التي تشد على خناقنا إلى حدّ أن تحملنا على الكفر بالحياة وربّ الحياة ؟

إني لأوثر لنفسي ولكلّ إنسان أن نزحف على الأرض زحف السلاحف — ولكن إلى الخير . بدلاً من أن نطير في الجوّ بسرعة البرق — ولكن إلى الشرّ . وإني لأرضى أن أكون من الذين لا يميزون بين الألف والعصا ، وأن أحمل مع ذلك بلسم الحياة إلى الناس ، ولا أرضى أن أكون أعلم العلماء ، أو أشعر الشعراء ، أو أشهر الموسيقيين والرسامين ، وأن أحمل إلى الناس سم الموت .

لذلك أقول للمصلين والطالبي الإصلاح أينما كانوا ومن أيّة أمّة أو ملّة كانوا : أصلحوا أنفسكم يصطلح العالم . أو أذكرهم بالقول المأثور : أيها الطبيب طبّب نفسك .

إن في استطاعة مبصر واحد أن يقود ألف أعمى . ولكنه ليس في استطاعة ألف أعمى أن يقودوا مبصراً واحداً . فكيف بالعميان يقودون العميان ؟

وإنّه لفي استطاعة عالم واحد أن يعلّم ألف جاهل . وليس في استطاعة ألف جاهل أن يعلّموا عالماً واحداً . فكيف بالجهال يعلّمون الجهال ؟

كيف لمن أباح نفسه للذل ، أو للظلم ، أو للجشع ، أو للكذب ، أو للدعارة أن يعلّم غيره الأنفة والعدل والقناعة والصدق والطهارة ؟ لئن طاوعه لسانه فأعماله لن تطاوعه . وأعماله تخبر عنه بفصاحة أبين منها فصاحة لسانه .

لا . لن يكون إصلاح في الأرض بغير صلاح . ولن يكون صلاح إلاّ إذا حاسب كلٌّ نفسه عن كلّ ما يعمل ويفكّر ويشتهي وينوي في كلّ لحظة من حياته . فبالأعمال والأفكار والشهوات والنيات تتحدّد علاقات الناس بعضهم ببعض ، وعلاقاتهم بالكائنات من حولهم . فهي صالحة أو طالحة على قدر ما تكون الأعمال والأفكار والشهوات والنيات صالحة أو طالحة . وصلاح هذه أو طلاحها مردهما إلينا أوّلاً قبل أن يكون إلى حاكم يحكمنا أو تاجر نبتاع منه سلعة من السلع ، أو جار نتعاون وإيّاه على قتل الوقت . فليس من يعرف طريقنا مثلنا . والمثل يقول : صاحب البيت أدرى بالذي فيه .

وإذن فالصلاح الذي أحدثكم عنه هو أن يعمل الإنسان لغيره كما لو كان يعمل لنفسه . وذلك ما تفرضه عليه الحياة فرضاً كما تفرضه على جماعات النمل والنحل وغيرهما من الكائنات التي لا حياة لها إلاّ بالتعاون . أتكون النملة أفضل من الإنسان وأوفر حكمة منه ؟

إن الأرض لتفيض خيرات وبركات . وكذلك السماء .

وهذه كلّها غذاء طيّب لأجسادنا وأرواحنا إذا نحن أحسنّا استثمارها . ونحن لن نحسن استثمارها ما دمنا نحاول الاستئثار بها وحرمان الغير منها . وما دمنا نجهل أن سعادتنا يستحيل أن تقوم إلاّ بسعادة جارنا . وانّنا لن نهنأ أبداً بشقاء الغير ، ولن نشبع بجوعه ، ولن نتحرّر باستعباده ، ولن نتشرّف بخزيه ، ولن نرتفع بانحطاطه ، ولن نتمجد بذله . وبعبارة أخرى ، فخيرات الأرض والسماء وبركاتها لن تكون مورد هناءة وسعادة لنا ما دمنا غير صالحين . بل تكون على العكس مصدر شقاء وعذاب ، وتنابذ وتناحر ، وفتن وحروب ، كما هي حالنا معها اليوم .

وإذ ذاك فالإصلاح الذي يطالب به الناس في كلّ مكان يجب أن يبتدىء وينتهي بالإنسان الفرد الذي هو حجر الأساس في بنيان كلّ مجتمع بشري مهما يكن نوعه . فمتى استقام الفرد استقام المجتمع . وإذ ذاك فخير ما يفعله الغيارى على إصلاح المجتمع هو إصلاح أنفسهم أوّلاً . وخير ما يختم به هذا المقال هو قول الإمام الأكبر كرّم الله وجهه :

« من نصّب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره . وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه . ومعلم نفسه ومؤدبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم . »

دروب

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
الأوثان
كرم على درب
لقاء
صوت العالم
كتاب مرداد
مذكرات الأرقش
ومضات (شذور وأمثال)
النور والديجور

في مهب الريح
دروب
النبي
أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون ١/٣
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
نجوى الغروب
من وحي المسيح
أحاديث مع الصحافة
رسائل

The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve
Other Stories.

MIKHAIL NAIMY

Roads

NINTH EDITION



Naufal Group sarl
BEIRUT - LEBANON



هـذا الكتاب

...إذا كان للأمم الحيّة أن تزدهي بعباقرتها وأن تباهي بفلاسفتها وشعرائها وكتّابها فقد حقّ لنا نحن أبناء الأمة العربية أن نضع ميخائيل نعيمه في رأس مفاخرنا الروحية والأدبية في هذا العصر.

ميخائيل نعيمه مدرسة إنسانية فريدة ، ومذهب ناصع من أنبل مذاهب الفكر الإنساني ، العربي والعالمي .

وكتاب "دروب" هو جوهرة في سلسلة مؤلفات نعيمه التأملية المتألقة . لم يسبق أن طاف كاتب بقرائه في مثل الدروب التي يدعونا ميخائيل نعيمه هنا إلى سلوكها في إطار من الفكر النيّر ، والتأمل العميق ، واللغة الرائعة والأسلوب الشيّق الفريد .

لقد تخطّى ميخائيل نعيمه بأدبه حدود الإقليميّة خصوصًا في الإنسان الذي هو محور الحياة والأدب .

يبقى على قراء العربيّة أن يستزيدوا من كنوز العبقري الذي يمنح ثماره للناس ، ويرافقوه في دروب الحياة والفكر والأدب .

الناشر